تاريخ التربيه بتونس

١

التوزرى



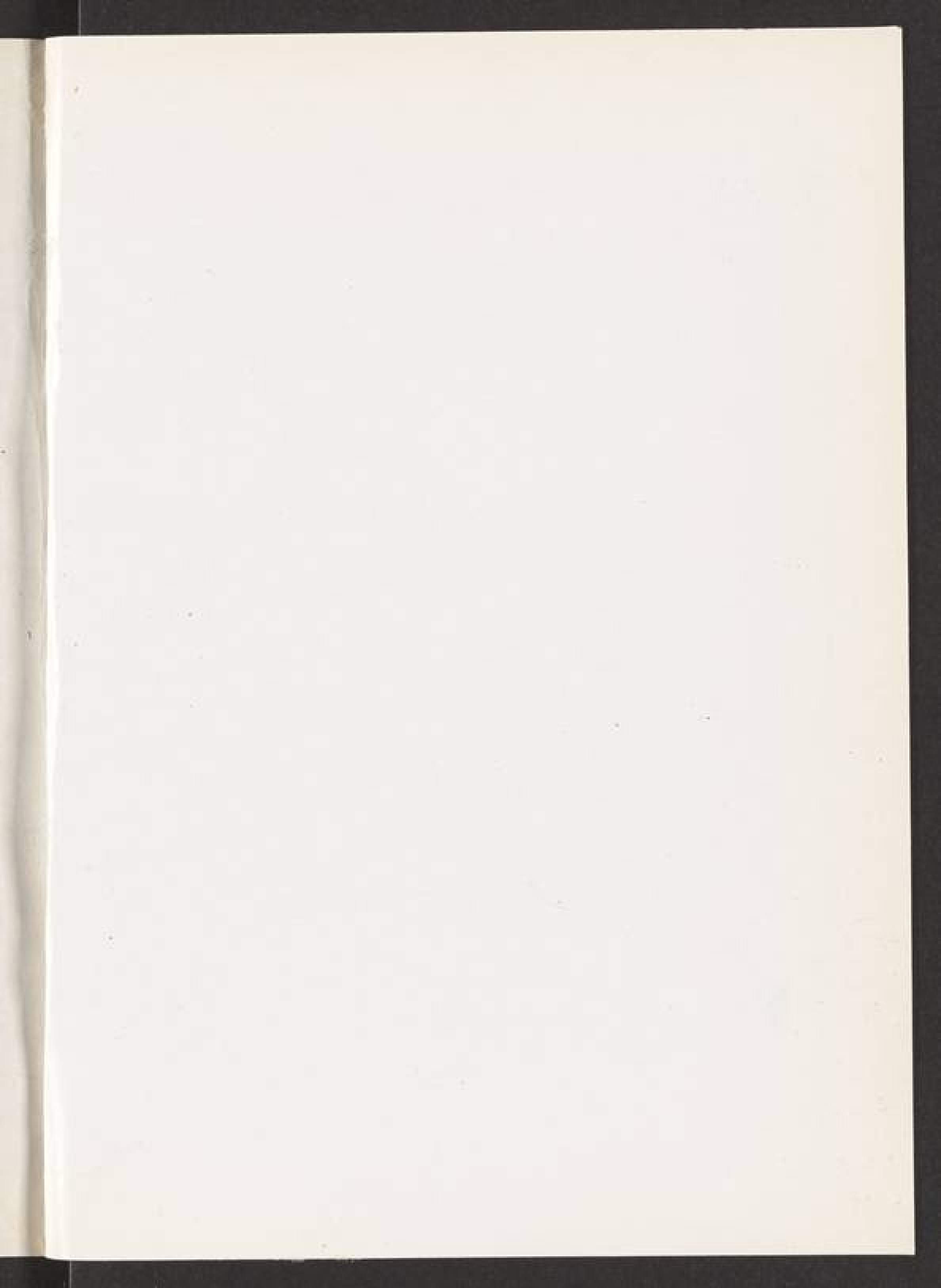


ابراهيم العبيدي التوزري

تاريخ التربية بتونس

الجزء الأول

الشركة التونسية للتوزيع



ابراهيم العبيدي التوزري

تاريخ التربية بتونس

الجزء الأول

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

الاهـــــداء

الى منقذ تونس وباعث مجدها ورائـد نهضتهـا ، الى المـربى الاول الذى قضى كامل حياتـه « فى اخـراج الانسان التونسى من حـالة اللاوعى السياسى والـوطنى حتى صيـره كائنـا سياسيـا اى شخصا مدركـا لمـا تفرضه عليـه منزلته كبشر ووضعـه كمواطـن »

الى فخامة رئيس الجمهورية التونسية

الاستاذ الحبيب بـورقيبـة

أهـدى كتـابى هذا المتـواضع

ابراهيم العبيدى التوزرى

ان عملية التربية والتعليم هي عملية ايقاظ وتنمية وتحرير للطاقات العظمى الكـامنـة في جبلـة الانسان كالطاقـة الـذرية في الـذرة .

الحبيب بـورقيبـة
(خطاب 30 جوان 1967 ص 28)

تقـــديم

بقلم : الدكتور علي الشابي

يتناول هذا الكتاب تاريخ التربية في تونس قبـل الاسلام وفي ظله حتى الزحفـة الهلالية ، وقد بنـاه المؤلف على التسلسل التاريخي نزوعا منه الى الضبط ورغبة في افادة القارىء من اقـرب طريق • وكان بالامكان ان يضع له منهاجـا آخـر كترتيبه عـلى الموضوعات الا انه عمد الى تلك الطريقـة لما اسلفنا ولجـدة هذا الموضوع كي يسهل تتبعـه والاستفـادة منه • فهو ينقلـك من عصر الى عصر سالكا بك سبل الدقة واليسر ، بعيدا عن التعقيد والتعسف، فلم يستقطب الافتراض الفج ولا ركن الى التخيل هناك بعيدا في زوايا التاريخ القديم ومعابر المـاضي السحيق • بـل ان المصدر يدعم الفكرة والمرجع يعضد التحليل والافتراض العلمي بربط وشائج هذا بذاك ، كل ذلك في اسلـوب رصين ينبو عن الترادف وزائف الخيال . وقد قصد المؤلف بهـذا البحث ربـط التـونسي باصالته واسهامه واثارة شغوفه الى شخصيـة وطنــه وامجـاده التاريخية ، كما قصد به الاهتداء الى طـريقة تـربوية تـونسية متحيزة تصدر عن الواقع وتعمل في الآن نفسه على تزكيته والسير بـه قدما . فجاء هذا البحث عـلى اختصاره مفيدا ، وعـلى اكتنازه مثيرا لكثير من المحاور في تاريخ التربية التونسية •

وبديهى ان ينطبع البحث بشخصية مؤلفه كما تنطبع التربية بالواقع الذى تصدر عنه ٠ فان الاستـــاذ ابـــراهيم التوزرى الذى اشتغل بالتعليم فى المدارس ثم بالتفقد قـــد عـــرف فيه تلاميذه البيداغوجى المقتدر ، والمثقف الواعى ٠ وما زلت اذكر كما يـــذكر تلاميذه سحر دروسه التى كان يلقيها علينا منذ عشرين سنة او ينوف ، ونفاذها الى افكارنا وقلوبنـــا بحيث كنا نعتبرها فى غمرة الدراسة مناط الفائدة والمتاع ، فـــلاشك اذا فى ان ينطبـــع هذا الكتاب بشخصية صـــاحبه فتتجلى فيه البراعة ودقـــة الضبط ليجد فيه القارىء طلبته وما ينشده من اسهام البلاد فى حقل التربية ٠

فشكرا للمؤلف على صنيعه وهنيئا للقارىء على ما سيجد فى البحث الطريف .

على الشـــابى

توطئـــــة

ظلت البــلاد التونسية ـ طيلة احقاب التاريخ المتعاقبة ـ مهدا تواردت فيه جميع الحضارات التى تألق نجمها على ضفاف البحر الابيض المتوسط ·

فعلى هذا الاساس اتيح لبلادنا ان تشارك بقسط وافـر فى تشييد صرح المدنية ، فازدهرت فى ربـوعها العلـوم والمعـارف والآداب والفنون ، كما دلت على ذلـك تلك الآثـار الجليلـة التى خلدها لها التــاريخ · فكانت تونس من اهـم مراكـز الاشعــاع الثقافى منذ اقدم العصور الى يوم الناس هذا ·

الا ان تراثنا الحضارى ما زال فى حاجة مـاسة الى مزيـد من البحث والاستقصاء . وليس اولى من ابنــاء تونس للاضطلاع بهذه المهمة التى يفرضها عليهم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ·

وبما ان التربية هى اصل كل تقـدم فكرى اردنـا فى هذه المحاولة البسيطة ان نزيح الستار عن هذا الجانب الهام من حضارتنا الثقــافية ·

اننا استعملنا كلمة تربية هنا فى معناها الضيق وقصدنا بها النظم البيداغوجية والمناهج والبرامج والطرق والاساليب التعليمية. كما اننا استعرضنا في ايجاز ثلة من كبــار الاساتذة والشيـوخ الذين عنوا بشؤون التربية بتونس فى مختلف العصور · وما هذا الاستعراض فى الحقيقة الا كشف لجانب من جوانب الثقافة القومية وهو يتضمن نـداء للشبــاب كى يقبلوا على الانكباب على امثال هذه

البحوث ويستقصوا غورها ويستخرجوا نفائسها ·

وقد قسمنا هذا المبحث الى اربع حلقات متبعين فى ذلك التدرج التاريخي :

الحلقة الاولى : شملت عصور ما قبل الاسلام اى العصر البربرى الخالص ثم العصر القرطاجنى البونيقى ثم العصر الرومانى وما تلاه.

الحلقة الثانية : شملت العصر الاسلامى الذى يبتدىء بالفتح العربى وينتهى بسقوط القيروان على ايدى اعراب الصعيد ·

الحلقة الثالثة : شملت العصر الحفصى حتى سقوط الدولة الحفصية ·

الحلقة الرابعة : شملت العهد التركى الحسينى ·

الا اننا اقتصرنا فى هذا الجزء الاول على تقديم الحلقتين الاولين مع الامل بان نقدم الحلقتين الاخريين فيما بعد ·

واما الايطار المكانى الذى شملته دراستنا هذه فهى افريقية ـ بالمعنى القديم ـ التى كانت تمتد من طرابلس الغرب الى موريطانيا القيصرية اى حتى مقاطعة وهران بالجزائر ·

ولعلنا بهذه المحاولة المتواضعة نكون قد ساهمنا ولو بجزء ضئيل ـ فى تلبية النداء الذى القاه فخامة الرئيس الجليل الاستاذ الحبيب بورقيبة فى جمع من الاساتذة يوم 12 مارس 1964 ـ والله ولى التوفيق .

ابراهيم التوزرى

البـاب الاول

التربية بافريقية فى عصور ما قبل الاسلام

الفصـل الاول

التربية عند البـربـر

مقـدمـة :

لقـد ذهب العلماء والفـلاسفة طرائق قـددا فى التعريف بحقيقة التربية وضبط اهدافها : فمن قـائل بانهـا تشمل كـل العمليات التى تـرمى الى تكامل الفـرد جسميا وعقليـا وخلقيـا ووجدانيا ، ومن قـائل بأن التربية تهدف الى ادمـاج الفـرد فى صلب الجماعـة وتأهيله لتنوىء المنزلة التى تنتظره ضمن مجتمعه، ومن قائـل بان وظيفة التربية تنحصر اولا وبالذات في ابراز ما انطوى عليه الانسان فى اعماق اعماقه من خير وعـدل وجمال ، ومن قائل بان التربية تؤهل الانسان لكى يصبح مـؤمنا خالصا فتعرفه الله وتقربه منه .

وهكذا مهما كانت اهداف التربية ومقـاصدها واشكالهـا فانها ترمى الى الرفع من منزلة الانسـان سواء كـانت التربيـة شخصية ام اجتماعية أم انسانية أم دينية .

ونحن نعلم ان التربية ، هذه الظاهرة الاجتماعية ، تتاثر بالبيئة اكثر مما تؤثـر فيهـا • فكيفما كـانت البيئـة كـانت التربيـة •

فهى خاضعة فى الآن نفسه للـوضعية الجغرافية والاقتصادية والاجتماعيـة والسياسية والـدينية وفى خدمتها غـالبا . وقلما نجد التربية فارضة نفسها على الاوضـاع الطبيعيـة والاجتماعيـة والسياسية والروحية كما هى الحـال أحيانـا فى صورة حـدوث انقلابات سياسية او عقائدية •

ولم تخـل اى امـة او اى قبيلة بل قل اى اسرة من ممارسة تربية ابنائها ، بدائية كانت اومتحضـرة ، وذلك لعلمها بان فى خلود التربية خلود كيانها . فتلك الأقـوام البدائية الضاربـة فى ادغال افريقيا او تلك التى تعيش فى مجاهل استراليا او تحت الجليد بفيافى الاسكيمو لها انماط تربوية تلائم طرق عيشها وتقاليدها وعاداتها ومعتقداتها . وكذلك كان للبربـر تربيتهم التى كـانت بدائية فى اقدم العصور ثم اخذت ترتقى وتسمو بفضل احتكاكهم بالامم المتحضرة التى جاورتهم او عايشتهم •

يسكن البربر او الليبيون بلاد الشمال الافريقى اى المغرب العربى بالتعبير العصرى • فهى ارض مستطيلة الشكل يكتنفهـا البحر من ثلاث نـواح الشرق والشمال والغـرب • كما تحدهـا الصحراء جنوبا ، وهذه اشد مـراسا واصعـب عبـورا من البحـر نفسه • فلذلك كان العرب يسمون بلاد البربر «جزيرة المغرب» •

وعلاوة على هذه الوضعية التى جعلت بلاد البربر فى عزلة ، فان سلاسل من الجبال تخترقها غربا وشرقا ، بحيث قسمت ارضها الى اجزاء قد لا تفضى الى بعضها بيسر • واما البلاد التونسية فهى تحتل الجزء الشرقى من بلاد المغرب •

فبحكم هذه الوضعية الجغرافية كانت الامة البربرية على مدى العصور مقسمة الى شعوب وقبائل متنافرة لم تجمع بينها لا وحدة دينية ، ولا وحدة سياسية ، ولا وحدة اجتماعية • واما الوحدة اللغوية فكانت مفككة •

كانت الوحدة السياسية متمثلة فى القبيلة التى كانت هى الاخرى تتركب من اسر مستقلة عن بعضها فلا تلتئم صفوفها ولا تتوحد كلمتها الا اذا ادلهم خطب او احدق خطر يهدد كيان القبيلة.

كان البربرى متعلقا باسرته الى حد العبادة يحترم قوانينها ويقدس مبادئها ، وكان شديد التمسك بمعتقدات آبائه واجداده وبعاداتهم وتقاليدهم • فتلك الخلال هى التى ميزت شخصيته ، وضمنت له حفظ كيانه على مدى الدهور والعصور •

فلهذه الاسباب الجغرافية والسياسية والاجتماعية لم تكن للبرابرة تربية قومية حسب مفهومها اليونانى او الرومانى او العصرى ، بل كانت التربية عندهم تربية عائلية • فالعائلة كانت المؤسسة التربوية الوحيدة •

كانت الام تسدى الى ابنائها التربية الاخلاقية الاولى ، ذلك ان المرأة البربرية كانت تقوم بدور هام فى المجتمع البربرى •

فلقد ابرزها لنا التاريخ كقائدة مـاهرة (الكـاهنة مثلا) (1) او سياسية محنكة مثل (زينب الأغماطية «الساحرة») التي تـزوجت ثلاثة امراء (2) او كمربية حاذقة (ام ملال) الصنهاجية عمة المعز بن باديس ومربيته (3) ·

كـان الاب متمما ومكملا لهذه التربية الاولى ، فقد كانت له الكلمة العليا واليد الطولى على الاسرة · فاذا تحـرر الابن من ربقة الام تولى الرشداء تربيته ·

ولـم تكن هـذه التربيـة منظمة ومبنية على اسس وقواعد، بل كانت بدائية قوامها اللعب ثم التقليد والمشاركة الجمـاعية · فالطفـل يقضي طفولته يحـاكي الكبـار في تكلفه الصيد والقنص والتدريب على الحروب والصناعات وتسلق الاشجار ولربما كلف بـرعى الدواب ·

وعند ما يبلغ سن المراهقة واليفاعة يرى نفسه مضطرا الى القيام بمختلف الاعمال والاشغال التي يقوم بها اهل اسرته وابناء عشيرته، من حراثة وصناعة ورعى وصيد · فيدرب هكذا بصفة عملية على حياة الرشد والكهول مـن دون أن يشعـر · فكـانت مدرسته الحقيقية الحيـاة نفسها بمـا فيهـا من واقـع ومختلف الاعمـال ·

---

1) الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب : كتاب شهيرات التونسيات . صفحة 10 تونس 1953
2) السلاوي : كتاب الاستقصاء في تاريخ المغرب الاقصى . صفحة 183
3) الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب : الكتاب المذكور صفحة 39

فهكذا ظلت التربية عند البرابرة فى جاهليتهم تكاد تكون لا شعورية مقتصرة على ممارسة الحيــاة • فكانت تستغل نزعات الفــرد الطبيعية ، وهى لعمرى التربية الاساسية فى اجلى معانيها.

واما التربية الدينية عند البرابــرة فكان اساسهــا التقليد والمحاكاة والمشاركة الجماعية • فالطفــل كان يشارك قومــه فى اقامة الطقوس والحفلات الدينية ويؤدى الشعائر بصفة تلقائية •

فهكذا كان الطفل يتلقى تربيــة بــواسطة اللعب والتقليــد والتدريب والمشاركة فى الحياة الجماعية • وهو ما كان يؤهله الى الاندماج فى بيئته والانسجام مع مجتمعه الذى قدر لــه ان يعيش فى كنفه وبين احضانه • وهى الغاية المقصودة من كل تــربية سواء كانت تلقائية او مدبرة •

واما التربية بمعناها الضيق أى التربية المدرسية فمن الراجح انها كانت مفقودة عندهم • ولكن هــذا الظــن لا ينفى وجــود ادب شعبى عند البرابرة . بل لقد خلدت لنا اللغة البربرية وغيرها من لغــات الامم التى اختلطت بالبرابرة ادبــا بربريا زاهــرا وشعرا رائقا تناولا جميع الوان الحياة عند البربر • فاننــا فى هذا الصدد نحيل القارىء الكريم على المؤلف الضخم الذى صنفه هنرى باصى فى الادب البربرى (4) •

الخــط البربــرى :

اقتبس البربر منذ قديم الزمان خطا بحروف صائتة منفصلة وضعوا بعضها من تلقاء انفسهم واستنبطــوا الاخــرى من الخــط

(4) Henri BASSET - Essai sur la littérature Berbère

الحميرى او من الخط المصرى القديم (الكتابة الهيروغليفية) ويعرف هذا الخط بالخط اللوبى • وهو عبارة عن نقط ومطات ودوائر• وكانوا يكتبون الاسطر افقيا او عموديا فى اتجاهات متعاكسة •

وهذا الخط يوجد منقوشا على الصخور بالجهات الصحراوية وعلى مشاهد القبور فى غرب البلاد التونسية ، وشرق بلاد الجزائر ، وجزائر الكنارى ، وما زال يكتب به الطوارق انفسهم ، فالغالب استعماله عند النساء لانهن اقل امية من الرجال (5) •

وبقى الخط اللوبى القديم مستعملا حتى العهد العربى • ويظهر انه تعطل منذ القرن الثانى للهجرة عطله الخوارج وقلبوه الى خط عربى مع استنباط حروف زائدة فى لغة البربر •

واما الكتابات المنقوشة بالاحرف اللوبية بالمشاهد فقد استعصت قراءتها على علماء الآثار بالرغم من ان ما يقرب من العشرين منها لها نظيرها البونيقى او اللاطينى « فالكتابة المنقوشة الوحيدة التى تحمل تاريخها هى التى عثر عليها ببلدة دقة وهى تقابل السنة العاشرة من ولاية الملك البربرى « ماسينيسا » اى سنة 139 قبل المسيح وهى مثنوية اللغة مكتوبة باللغة والخط البربريين واللغة والخط البونيقيين (6) •

وتوجد صورة فتوغرافية لهذه اللوحة الاثرية بالصفحة 43

(5) Henri BASSET الكتاب المذكور : صفحة 81

(6) Histoire de l'Afrique du Nord, ch. André Julien, Tome I p. 69

من كتاب « تاريخ الجزائر » لعثمان الكعاك وبالصفحة 65 من كتاب « مدنية المغرب العربى » لاحمد صفر •

من الراجح ان معرفة الكتابة عند البرابرة كانت من خصائص الكهنة ورجال الدين يتوارثونها دون عامة الناس ، فلذلك لا نجدها الا على مشاهد القبور •

ومهما يكن من الامر فان التربية عند البربر سوف لن تستقر على حالتها البدائية : فسوف يختلط البربر باقوام متحضرة ، وسوف يقتبسون عنهم ضروبا من التربية واصنافا من العلوم والوانا من الفنون ، وسوف يبرز من بينهم علماء اجلاء، وادباء ظرفاء ، وشعراء فطاحل ، ومربون ماهرون ، ومفكرون متبصرون سيساهمون مساهمة فعالة فى بناء صرح الحضارة وتشييد هيكل المدنية على تعاقب العصور وتتالى الدهور •

اللغة البربرية :

كان البربر وما زالوا يتكلمون لغة خاصة منتشرة فيما بين المحيط الاطلسى والحدود المصرية ، وهى من فصيلة اللغات الحامية المتفرعة عن السامية فلها قرابة بالقبطية والسودانية والحبشية •

يمكن تقسيم اللهجات البربرية الى ثلاث اسر اصلية :

1) اللهجة الزناتية التى يتكلم بها برابرة ليبيا وتونس والجزائر ما عدا القبائل والطوارق

2) اللهجـة الصنهاجية وهى التى يتكلم بها برابرة جبال القبائل والطوارق الملثمون ٠

3) اللهجـة المصمودية وهى التى يتكلم بهـا شلوح المغـرب الاقصى بجبال الاطلس وبرابرة السوس جنوب المغرب ٠

« وتتفرع هذه اللهجـات الى مـا يقـرب من اربعين رطـانة قبليـة » (7) ٠

منذ ان فتح العرب شمال افريقيا وعم الاسلام تلك الربوع اخذت اللغة البربرية تتقهقر امام اللغة العربية لغـة الدين ولغـة السياسة حتى اصبـح عـدد المتكلمـين بهـا لا يتجـاوز الآن السبعـة مـلايين نسمة ٠ فلقد تقلص ظلها تماما من الكثير من النـواحى حيث لم يبـق منهـا مستعملا الا بعض الكلمات القليلة مثـل :

فكرون (سلحفاة) ، بركوس (خروف) ، كسكس (طعـام معروف) ، برنس (رداء معروف) ، غنجايـة (ملعقـة) ، قـدوارة (جبة) ، قربى (كوخ) ، قرق (خذاء من شعر) ، الخ ٠٠٠

واليكم نسبة المتكلمين بالبربرية فى مختلف اقطار المغرب العـربى :

0/0 27 من مجموع سكان المملكة الجمهورية الليبية ٠

---

(7) Stephen GSELL. Histoire ancienne de l'Afrique du Nord Tome I. P. 309

0/0 2 من مجموع سكان الجمهورية التونسية

0/0 30 من مجموع سكان الجمهورية الجزائرية

0/0 45 من مجموع سكان المملكة المغربية (8)

الادب البربرى :

الادب البربرى يتمثل فى ادب شعبى خصب تتناقله الرواية الشفوية ، وفى ادب علمى مدون كتابيا .

فالادب الشفاهى هو ما يدور على الالسن مشافهة بين مختلف القبائل من اشعار واغان ونوادر وقصص وامثال وحكم وقد عنى المتاخرون بجمعه .

والادب العلمى ينقسم الى ادب : جاهلى ، وينتهى بظهور الاسلام ببلاد البربر وادب اسلامى .

فالادب الجاهلى هو المقصود به الادب الذى ازدهر فى العصر البربرى الاول ثم عصر الاستقلال البربرى ثم العصر الرومانى فالوندالى فالبزنطى ...

ان ادب العصر البربرى الاول، وهو السابق لحلول الفنيقيين بشمال افريقيا ، مفترض الوجود فلم يبلغنا عنه اى اثر اذا ما استثنينا النقوش الحجرية التى تحدثنا عنها آنفا .

---

(8) كتاب البربر لعثمان الكعاك : سلسلة البعث . تونس 1956

فى العهد البونيقى كان ابناء الاسر البرجوازية وخصوصا منهم ابناء الملوك يتعلمون بمدارس قـرطاجنة كما يتضح ذلك من كثير من المصنفات (9) وقد برز من بين الكتاب البربريين الذين كتبوا بالبونيقية الامير البربرى هيميال (10) ٠

واما فى العهد الرومانى فقد ظهر كثير من المربين والادباء البرابرة الذين تركوا لنا مؤلفات جمة فى جميع الفنون، حرروها اما باللغة اليونانية او اللاطينية، كما سنرى ذلك عند التحدث عن التربية فى العهد الرومانى (11) ٠

وفى العصور الاسلامية ازدهـر الادب البربرى سواء منه المكتوب فى اللغة العربية او فى اللغة البربرية وبحروف عربية :

ففى اللغة البربرية الف البرابرة فى التـاريخ والانساب والفقه عند الاباضية كما اوجد البربر الوهابيون معجما بـربريا توجد منه نسخة بجزيرة جربة ٠ فمن بين المـؤلفـين البـرابـرة المسلمين محمد او على الذى ترك لنا كتابين فى الفقه والمعامـلات يسمى احدهما كتاب الحوض ٠

ومن بين كتب الخـوارج التى صنفت باللغة البربرية كتاب العقيدة الذى ترجمه الى العربية ابو حفص عمر بن جميعة واخبار ابى زكريا الذى تـرجمه الى الفرنسية مسكراى ٠

---

(9) Stephen GSELL - Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T. IV. P. 212

(10) BOUSQUET : Les Berbères. Que sais-je P. 86

(11) Histoire littéraire de l'Afrique Chrétienne. P. Paul Monceau Leraoux — Paris 1901 et années suivantes (6 volumes)

وفى سنة 127 هجرية ظهر متنبىء بربرى فى قبيلة برغواطه البربرية الضاربة بالمغرب الاقصى على سواحل المحيط الاطلسى بجهة مدينة سلا • فادعى هذا المتنبىء المسمى صالح بن طريف البرغواطى انه جاء باسلام جديد خاص بالبربر • وصنف قرآنا باللغة البربرية نقل ابو عبيدة البكرى بعض فصوله الثمانين • وقد بقى هذا القرآن سريا ثم جهر به وانتشر بين اهل تامسنا طيلة قرون حتى قضى عليه الموحدون فى القرن السادس •

وفى سنة 313 هجرية ظهرمتنبىء آخر في قبيلة بنى غمارة بالريف يدعى « حميم » والف هو ايضا قرآنا بالبربرية دعا اليه اهل قريته • ولكن لم تدم فتنة حميم الا قليلا حتى قضى عليها قضاء مبرما •

لم يبقى اثر من هذين القرآنين الا ما نقله الينا ابو عبيدة البكرى فى كتابه مترجما بالعربية (12) •

وهكذا كان عندنا ادب بربرى بونيقى على عهد قرطاجنة • وفى عهد الرومان وجد عندنا ادب بربرى محرر باللغة اللاطينية أو اليونانية • وبعد الفتح الاسلامى صار عندنا ادب بربرى باللغة العربية • وفي عهد الاحتلال الفرنسى ظهر عندنا ادب بربرى مكتوب باللغة الفرنسية •

---

(12) كتاب المسالك والممالك لابى عبيد الله البكرى الاندلسى المتوفى بقرطاجنة الاندلس سنة 1094 م

الفصــــل الثـــانى

التـربية فى العهـد البـونيقى القـرطـاجنى

ليس لدينا من الوثائق ما يمكننا من التعـرف على الحيـاة الادبية والثقافية والعلمية وعلى طـرق التـربيـة واسـاليبهـا بقـرطاجنة البـونيقية . فلقد تصفحنـا الكثـير مـن الكتـب الموسوعة التى عنيت بدراسة العهد البونيقى ولكن لم تتعرض هذه المؤلفات الى موضوع دراستناهذه اذا مـا استثنينـا المـؤرخ الفرنسى ستيفان قزيل الذى افرد لقرطاجنة البونيقية الجـزء الرابع من كتابه الشهير « التاريخ القـديم لشمال افـريقيا » . وحتى هذا الاخير ، وان هو لم يتوسع فى النـاحيـة التـربويـة والثقافية ، لم يخل من التعصب كما سنبينه فيما بعد .

وقد حاول الاستاذ بيكـار التحـدث فى شـؤون التـربيـة بقرطاجنة البونيقية فى الكتاب الذى خصصه لـدراسة « الحيـاة اليومية بقرطاجنة فى عصر حنبعل » الا ان هذا الكتاب هو الآخر لم يتوسع فى الموضوع لقلة المصادر التى اهتمت بتـاريخ قرطاجنـة البونيقية .

يقول الاستاذ بيكار ما ترجمته :

« يجوز ان يظن ان التوجيه التربوى بقرطاجنة كان يرمى الى اعداد الولدان للتجارة والاسفار البعيدة • ومن الواضح ان اسر الكهنة كانت لها مدارسها الخاصة الشبيهة ببيع الربيين الاسرائليين • ففى هذه المدارس كانوا يعلمون الاحداث القراءة والكتابة باللغة الفينيقية ويحفظونهم القصائد والاحكام التى تضمنت القصص والطقوس الدينية • وكانت دراسة هذا « التورات » الفنيقى مشفعة بدراسة علم الكلام والالهيات •

ولربما يكون من العسير تصور ارتقاء الدين الفنيقى الى مستوى التجرد النظرى كما تدل على ذلك الهياكل لو لم تكن لهذا الدين جامعات شبيهة بمدارس الاحبار او بالمدارس الاسلامية (الى حد ما) •

وفى العهد الاخير من حياة المدينة البونيقية كانت الاسر النبيلة من غير اهل الدين تنزع الى تعليم ابنائها تعليما اكثر حرية وتسامحا • فتعلم الكثير من القرطاجنيين اللغة اليونانية بجزيرة صقلية او بقرطاجنة نفسها ••• فاستمالت المبادىء الانسانية الهيلينية (La Païdeia) البعض من هؤلاء الهمج (يعنى بهم القرطاجنيين) وحببت اليهم تثقيف ابنائهم حسب الطريقة اليونانية •

فحنبعل العظيم درس الستراتيجية الحربية فى مؤلفات يونانية ومن المحقق انه تلقى بعض المبادىء « فى الفنون الاخرى • ويقال ايضا ان البطلة القرطاجنية سيفونسب كانت مثقفة فى الادب وماهرة فى فن الموسيقى • فهذا مما يدل على ان

النساء لم يكن محرومات من التعليم ، ولربما كان يسمح لهن بدراسة الاداب والفنون اكثر مما يسمح به للولدان الذين كانوا يوجهون منذ حداثتهم الى مختلف الوان النشاط العملي » (13) ٠

وقد نجد بعض السخافات عن تاريخ التربية والثقافة بقرطاجنة البونيقية ومنشأها ما كان وما زال يضمره الغربيون من سخرية واحتقار نحو الشرقيين ٠ ومن بين تلك السذاجات ما اورده السيد محمد فنطر فى كتابه « قرطاج » حيث يقول : « الا ان غالب البونيقيين كانوا يتعاطون التجارة والصناعة مما جعل ثقافتهم ترمى قبل كل شىء الى معرفة كل ما يمكنهم من مجابهة الحياة اليومية واقتحام صعوباتها ٠ من ذلك وجب على التاجر ان يتعلم الحساب بمقدار يكفيه حل المشاكل العملية اليومية دون ان يتوغل فى بحر الحسابيات ٠ (14)

فمن المحقق ان السيد محمد فنطر لم يبتكر هذا الحكم بل نقله عن مؤلفين غربيين يعتقدون هذا الاعتقاد خطأ أو تعصبا ٠

والحقيقة هى التى صدع بها هوباك حيث قال : « لم تترك لنا قرطاجنة تاريخا ٠ فاننا لم نطلع على تاريخ قرطاجنة الا بواسطة المؤلفين الاجانب ٠ فلو كان هؤلاء المؤرخون اجانب فحسب لأمكننا ان نعلم بصفة تقريبية ما كانت عليه قرطاجنة ٠

---

(13) Gilbert et Colette Charles Picard — La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal — Paris 1958

14) محمد فنطر ـ قرطاج ـ صفحة 59 ـ تونس 1963

ولكنهم كانوا اعداء لها ، ولم يكونوا اعداء عرضا بل اعداء الدهر ، اعداء فى قرارة النفس » (15) ٠

فكيف يمكن التوفيق بين الروايــة التى تنفى وجــود ادب وثقــافة بقرطاجنة وبين ما نقله الينا المؤرخ الرومانى بلين القديم (Pline l'ancien) اذ قــال : « بعــد اكتساح مــدينة قــرطاجنة (من طــرف الجنود الرومان) اهــدى مجلس الشيوخ الرومانى مكتبات قرطاجنية الى الامراء الافــارقة » (16) ثم استطرد قزيل الذى اورد هذا الحديث فقال : « ان المؤلفات التى نجــت من التحطيــم سنــة 146 ق٠م٠ لم تظل دون فائدة لاربابهــا الجــدد خصوصا هيامبسال (امير بربرى من آل مسينيسا) الذى يبدو انه الف شخصيا مصنفا او مصنفات تاريخية » (17) ٠

وعلاوة على ذلك فان قزيل ينفى فى الكتاب نفسه (18) وجود ادبــاء وعلماء بونيقيى الاصل ٠ حتى اذا ما تعرض فى الحديث الى المــؤرخون صوصيلوس (SOSYLOS) وسلينــــوس (SILIENOS) والى قارون القرطاجنى النسابة (Charon de Carthage) والى الفيلسوفيــين كسينوكرات (XENOCRATE) وهيريلــوس (HERRILOS) ادعى بان هؤلاء كلهم يــونانيو الاصــل وحجته فى ذلك « ان بنية اسمائهم تذكرنا الاسماء اليونانية » ٠

---

(15) R. HUBAC — Carthage P. 125 Ed. Bellenand — Paris 1952

(16) Stephen GSELL — Histoire de l'Afrique du Nord — Tome IV - P. 212

(17) Stephen GSELL — Histoire de l'Afrique du Nord Tome IV - P. 214 - 215

(18) Stephen GSELL — Histoire de l'Afrique du Nord Tome IV - P. 214 - 215

ان الحجة التى احتج بها قزيل تبدو لنا واهية ولا يمكن ان تثبت على اساس متين وذلك للاسباب التالية :

اولا : ان وجود مكتبات عديدة بمدينة قرطاجنة عند تخريبها يـدل حتما على وجود عدد وافـر من المؤلفات الامر الذى يدل على كثرة الكتاب والمطالعين ، وهذه حجة على انتشار الثقافة •

وهل يعقل ان تكون كل او جل هذه المؤلفات من عمل مثقفين يونان دون ابناء البلد ؟

نعم ان الثقافة الهيلينية كـانت منتشرة فى كامل بـلاد البحر الابيض المتوسط لكن هذا لا ينفى وجود ثقافة محلية زاهرة خصوصا بمدينة عريقة فى المجد والثراء والفنون كقرطاجنة •

فتغلغل الثقافة اليونانية بالبلاد الرومانية طيلة قرون لم يتناف وظهور كتـاب رومانيين كتبوا فى اللغـة اللاطينية مثـل شيشـرون (CICERON) وفيرجيل (VIRGILE) وغيرهما كثيرون •

ثانيا : ان بنية اسماء الاعلام السابقى الـذكر ليست دليـلا قاطعا على انهم ينانيو الاصل • فالذين امـدونا بهذه الاسماء هـم يونانيون وقد كتبوها بحروف يونانية قـديمة حسبما يستلـزمه نطقهم من تحريف • فتهلنت تلك الاسماء بطول المدة وبمداولتها بين الكتاب كما تفرنست اسماء اعـلام عـرب مثل (AVICENNE) ابـن سينـا و (AVEROES) ابـن رشد و (MEIMONIDE) ابن ميمون و (RAZES) ابـوبكر الرازى ، وغيرهم كثيرون جدا •

ثالثا : لقد افرد قزيل الجزأين الخامس والسادس من تاريخه لدراسة حياة الامراء الافارقة على عهد قرطاجنة . وذكر في مناسبات عديدة بان الكثير من ابناء هؤلاء الامراء والاعيان تعلموا بمدارس قرطاجنة . فكان من بينهم الادباء والمؤرخون ... فكيف يتم تثقيف الابناء الافارقة بمدارس قرطاجنة لو لم تكن هناك ثقافة بونيقية وتربية بونيقية ؟ وكيف يعقل أن يتثقف الأفارقة البرابرة بقرطاجنة دون ابنائها الاصليين ؟

ان الحقيقة هي التي اوضحها هوباك الآنف الذكر . وعلاوة على ذلك يجدر بأن نتذكر ان مجلس الشيوخ الروماني امر في عام 146 ق.م. بتحطيم قرطاجنة تحطيما منظما ورسميا (Destruction systématique et officielle) بعد حرقها وحرث ارضها حرثا وزرعها بالملح (19) وتخريب واتلاف كل ما كان بونيقيا سواء في ذلك البناءات والسفن والتماثيل او الكتب والتحف . فلم ينج من تراث قرطاجنة الا ما بقي دفينا تحت طبقات التراب .

وهكذا قضى الحقد الروماني اللدود على حضارة كاملة فطمس معالمها ودك صروحها حتى درست وعفت فاصبحت لا اثر ولا عين .

وبعد هذه الحقائق التي لا تقبل الدحض يدعى الغربيون بان قرطاجنة كانت عارية من الثقافة والعلوم .

---

(19) E/F. Gautier — Le passé de l'Afrique du Nord P. 124 Payot — Paris 1952

لقد اسلفنا انه لم يبق من التراث الفكرى البونيقى الا ما نجابه الدهر ، فوصلنا مفككا مبعثرا مشوها عن طريق المؤرخين اليونان . فمن ذلك « رحلة حنون » التى قام بها الامير القرطاجنى حنون حوالى سنة 480 ق.م. فقد ترك لنا حنون تقريرا مفصلا عن الرحلة التى قام بها بحرا حتى وصل الى بلاد الكمرون . وقد نقشت هذه الرحلة على صفحة مستديرة من نحاس كانت معلقة بمعبد بعل حمون بقرطاجنة . لكن لم يبق من ذلك النص سوى ترجمته باليونانية التى انجزها شيخ المؤرخين « هيرودوتس » . فنحيل القارىء على ترجمتها العربية بالجزء الاول من كتاب « مدنية المغرب العربى فى التاريخ » للاستاذ احمد صفر: صفحة 127 . مطبعة العمل تونس 1959 .

ومن بين المصنفات البونيقية التى طالما تحدث عنها مؤرخو اليونان لم يبق الا كتاب واحد وصلتنا منه بعض الفقرات، وهو من تأليف العالم البونيقى ماغون ، صنفه فى العلوم الزراعية .

ان هذا المصنف يقع فى 28 جزءا ، وقد فتح مجلس الشيوخ الرومانى مناظرة لترجمة كتاب ماغون الى اللغة اللاطينية ففاز بالجائزة احد المواطنين الرومان وبعد ذلك التاريخ بنصف قرن تقريبا وعلى عهد الطاغية سيلا ترجم احد سكان اوتيكا (عتيقة) دائرة معارف ماغون الى اللغة اليونانية .

وفى الختام نحن موقنون بان قرطاجنة البونيقية كانت عاصمة فكرية زاهرة تشع بنور ثقافتها على كامل البلاد الخاضعة

لسلطانها ، وانها انجبت الكثير من المفكرين والمثقفين الـذين انتهلوا من معين مدارسها • الا ان العداوة الابـدية التى كانت تناصبها رومة لها اودت بالثقافة القرطاجنية كما أودت بجميع ما كان بو نيقيا حتى تامن رومة على مستقبل حياتها • فلذلك لم يصلنا من الحياة الفكرية القرطاجنية الا النزر اليسير •

ومن المعلوم ان موسعة مـاغون الفلاحية ترجمت ايضا للغـة اليو نانية بقلـم الافـريقى ديـو نيزوس (DIONYSIUS) وليد بلدة عتيقة (UTIQUE)

ثـم ان القرطاجنى هصدر بعـل (HASDRUBAL) هاجر الى بلاد اليو نان حيث اسس مدرسة الاكاديمية العلمية •

الفصل الثالث

التربية بافريقية الرومانية

مقدمة

عند ما احتلت الجيوش الرومانية افريقية كانت بلادنا وقتذاك على درجة عالية من الحضارة والتقدم فى جميع الميادين ، الفكرى منها والعمرانى والاقتصادى ، كما يشهد بذلك المؤرخ اليونانى تيتوس ليفوس (TITUS LIVUS) نفسه الذى كان مصاحبا لجند شبيون حيث قال :

« لقد شاهدت الجيوش الرومانية بافريقية ضروبا من المبانى والوانا من الفنون وأساليب من الفلاحة ما ابهرهم .»

وقال المؤرخ الرومانى كالوميلوس (CALLUMELLUS) ما نصه :

« ان القرطاجنى ماغون هو الاولى والاجدر (من كاتون الرومانى) بتقديرنا لانه هو ابو الاقتصاد الريفى الرومانى ».

لقد دمر الرومان مدينة قرطاجنة تدميرا ، وخربوا كل ما كان بونيقيا تخريبا منظما ورسميا ، الا انهم لم يستطيعوا

القضاء بيسر على الثقافة البونيقية التى تغلغلت فى ارجاء البلاد وتمكنت من العقول والقلوب احقابا طويلة • وقد استمرت هذه الثقافة نافذة المفعول طيلة قرون بعد الاستيلاء الرومانى • ولربما دامت الى حين الفتح العربى كما تدل على ذلك مشاهد القبور المؤرخة بالقرنين الخامس والسادس للميلاد •

يقول الكاتب الفرنسى بول منصو فى هذا الصدد :

« بعد الاستيلاء الرومانى بقرون حافظ الافارقة على شواهد الآداب القرطاجنية التى كانوا يقرأونها بخشوع • فلقد عالجها الكثير من المؤلفين واستخلصوا منها معلومات مفيدة ، واولئك امثال صالست ويوبا والمؤرخين والجغرافيين اليونان وأبوليوس وأفيانوس والقديس اغسطيانوس (20) • فكثيرا ما نص الكاتب البربرى ابوليوس على كتاب الجغرافى القرطاجنى هاملكون الذى اخذ عنه كثيرا (بلين الجزء الثالث صفحة 169) • ويحقق لنا المؤرخ اليونانى بلوتارك ان الامير يوبا الثانى استمد عناصر كتاب التاريخ الذى صنفه من المؤلفات الافريقية (Plutarque. P. 23) كما يقول المؤرخ اللاطينى صالوست فى كتابه الذى افرده للحديث عن حروب الزعيم البربرى يوغرطا :

« ان جميع ما رويته فى التاريخ الافريقى استمددته من الكاتب البربرى هيامبسال (Salluste : la guerre de Jugurtha p. 17) •

ونحن نعلم ان الامير البربرى كتب تاريخه باللغة البونيقية فى غضون القرن الاول قبل المسيح •

(20) Les Africains par Paul MONCEAUX — P. 39

ومن الثابت انه طيلة القرنين الاولين اللذين عقبا الاستيلاء الروماني اي منذ أواسط القرن الثاني ق٠م٠ الى اواسط القرن الاول بعده لم تظهر آداب رومانية بافريقية ولم يعرف كتاب في اللغة اللاطينية ، اذ كانت اللغة السائدة بالبلاد هي اللغة البونيقية بمعية اللغة اليونانية لغة العلوم والفنون ٠

لكن التعليم المنظم الذي جاء به الرومان ، وتكاثر المدارس الابتدائية في جميع ارجاء افريقية البروقنصلية ونوميديا لما جعل البربر يعرضون رويدا رويدا عن الثقافة البونيقية ويقبلون على اللغة اللاطينية لغة السلطة ولغة الادارة ٠

الا ان اللغة البونيقية لم يعف رسمها بين عشية وضحاها بل استمرت لغة للاسر ولغة للكهنة والمعابد ٠ وها يشهد القديس اغسطيانوس ان قبائل افريقية عديدة كانت في عصره اي في غضون القرن الخامس المسيحي تتكلم البونيقية ٠ وكانوا يسمون انفسهم كنعانيين اي فنيقيين ٠

كما ان المؤرخ البيزنطي بروكوب (PROCOPE) يؤكد ان اللغة البونيقية كانت شايعة بافريقية اثناء القرن السادس المسيحي » (21)

وما سبب اضمحلال اللغة البونيقية اليوم من البلاد الافريقية الا لما لها بالعربية من شديد الشبه ٠

(21 Stephen GSELL — Hitoire Ancienne de l'Afrique du Nord Tome IV — P. 498

على ان بقاء الثقافة البونيقية بالبلاد على عهد الرومان هو الذى سهل انتشار الآداب والثقافة الرومانية بربوع افريقية • فالامة المتحضرة هى التى تستسيغ بسهولة الثقافات والآداب الواردة عليها • فذلك هو الذى جعل افريقية تحتل المكان الاول فى ميدان العلم والثقافة من بين بلدان الجزء الغربى من الامبراطورية الرومانية • فبلاد الغال مثلا (اى فرنسا) لم تهضم الثقافة الرومانية الا قليلا ولم تنتج ادباء ومفكرين على العهد الرومانى لانها لم تكن لها شخصية تاريخية وذاتية ثقافية •

وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الفرنسي قوتيه ما نصه ، بعد ان استعرض البعض من المفكرين الافارقة :

« واما غالة (اى فرنسا) فبمن لها ان تفاخر وتتباهى فى الميدان الثقافى ؟ ابذلك الكويتب (SIDOINE APOLLINAIRE) فان هذا الرجل لا قيمة له ازاء ما انجبته افريقيا الرومانية من فطاحل المفكرين والعلماء • فالرجل الغالى كان ذلك الهمجى الساذج الخالى من كل ثقافة تليدة والسهل الانقياد• واما افريقية فقد احتفظت بالبذور البونيقية التى زرعتها اقدم حضارة عرفت على وجه البسيطة • فلقد كانت لافريقية شخصيتها المخالفة لشخصية الرومان وهى شخصية ثائرة متمردة بحكم الضرورة (22) •

وبالرغم من ان الاستاذ بيكار يعارض فى استمرار وخلود الثقافة البونيقية على عهد الرومانى فاننا نراه يقول مانصه :

(22 GAUTHIER. — Le Passé de l'Afrique du Nord — Page 157 Payot - Paris 1952

« كان يوجد بافريقية فى غضون القرن الاول المسيحى مفكرون من ذوى اللغتين اللاطينية والبونيقية • واما اثناء القرن الثانى فكان التطاحن محتدما بين المثقفين ثقافة بونيقية وبين الذين اقبلوا على الثقافة الرومانية (23) •

وابتداء من اواسط القرن الثانى المسيحى اخذ الافارقة يظهرون على مدارج الثقافة اللاطينية وقد امتاز من بينهم كتاب وفلاسفة وادباء واطباء ونحويون سوف نستعرض بعضهم بايجاز فى خاتمة هذا الباب •

التربية الرومانية

قبل ان يحتل الرومان بلاد الشرق وبلاد اليونان على الاخص كانت التربية عندهم تربية عائلية • فكانت الام تقوم بنفسها على تربية ابنائها تربية عائلية وشديدة فى آن واحد • وكان رب العائلة يتمم هذه التربية اذ كانت له السلطة العليا • فكان يعلم ابناءه القراءة والكتابة والحساب بالمنزل ، ويراقب تمريناتهم الرياضية ، ويشرف على تأهيلهم للحياة العمومية • وكان المراهق الرومانى خاضعا لمراقبة الاسرة المستمرة الى عهد الشباب • وكان المثل الاعلى الخلقى يسود هذه التربية المشددة التى كانت مقبلة اقبالا تاما على حب الاسرة والوطن وعبادة الآلهة •

كان كل شىء مقدسا فى العائلة الرومانية : فروح الواجب ،

(23 Charles Gilbert-Picard — La Civilisation de l'Afrique Romaine. Page : 295 Plon-Paris 1959.

والعاطفة العائلية ، والعقيدة الدينيـة ، كـل ذلك كان متحـدا ومتداخلا يشكل وحدة لا تتجزأ . فكـان الانسان فى ذلك العهـد يحـب بيتـه كمـا يحب اليـوم كنيسته (24) .

عند ما احتل الرومان بلاد اليونان والشرق، كانت حضارتهم بدائية ، وان هى تستند الى فضائـل عائلية مكينـة . فاحتضنت رومة بصفة لا شعورية المؤسسات التـربوية الهيلينية ، وكـان ابناء الاسر الماجدة يرتحلون الى بـلاد اليونـان لتلقى الثقافـة والآداب الهيلينية .

والذى زاد الثقافـة اليونانيـة انتشـارا وذيوعـا ببـلاد الرومان ، وجود الكثير من الـرقيق اليونانيين بـرومة ، فأوكل لهؤلاء تثقيف الولدان . وهكذا احتلت اثينـا المغلـوبة ، بفضل ثقـافتها ، رومة الغالبة بفضل جيشها . ولسوف تظل الثقافة الهيلينية هى السائدة بالبلاد الايطالية وبالامبراطورية الرومانية طيلة قـرون .

التعليم بافريقية فى العهد الـرومانى

لقـد اجتهد الرومـان فى نشر ثقـافتهم بالبـلاد الخاضعة لسلطانهـم بشتى الـوسائل ، لعلمهم بان الخضوع الحقيقى لا يتم

(24 Fustel de Coulanges — La Cité Antique — Histoire des Institutions et des Doctrines Pédagogiques — SUDEL - Paris. 1955 — Page 60

وقد اورد بلميرو فى كتابه صورة لوحة منحوتة تمثل مراحل التربية القديمة عند الرومان التى كانت عائلية محضة .

وان الادماج العملي لا يحصل الا بواسطة الثقافة ، لا بواسطة الحديد والنار . وفي هذا الصدد يقول روجي قال :

«... فلذلك اضطر الرومان الى نشر ثقافتهم اللاطينية سعيا منهم وراء ترويم « ابناء البلاد المقهورة على امرها في اقرب الآجال ». وهكذا كان اول هدف ترمي اليه التربية الرومانية بافريقية هو تشبيه ابناء البلاد وادماجهم في المجتمع الروماني حتى يخلصوا لرومة ويعرضوا عن كيانهم القومي . فكان الهدف لهذه التربية سياسيا اولا وبالذات (25) .

كان التعليم في العهد الروماني على اربع مراحل ، مرحلة ابتدائية ومرحلة ثانوية ومرحلة ثالثة ومرحلة عليا .

التعليم بالمرحلة الابتدائية

كانت المدارس الابتدائية منتشرة بكامل البلاد الافريقية بما في ذلك المدن والقرى والارياف . وكانت هذه المدارس بسيطة جدا شبيهة بكتاتيبنا اليوم او ابسط من ذلك . فكان المجستر اى المعلم (Majister او Litterator) يقوم بتعليمه في دكان بسيط يستأجره مما يتوفر لديه من الاجر الذى كان يتقاضاه من تلاميذه اسبوعيا او شهريا . وكان المجستر عادة فقير الحال ، وكانت مهنته من اشق المهن عملا واقلها ربحا . واما ثقافته فكانت متوسطة او دون ذلك حيث ان تعاليمه كان

(25 Roger Gal. Histoire de l'Education. Que sais-je ? Page 45

مقصورا على مبادىء القراءة والكتابة والحساب · فذلك هو برنامج التعليم الابتدائي فى ذلك العصر ·

واما طرق التعليم فكانت بدائية : فكان الولدان يتعلمون حروف الهجاء حرفا حرفا ، ثم يدربون على تركيب الكلمات ، فتأليف الجمل · واما دراسة النصوص فكانت من خصائص التعليم الثانى والثالث (26) · ولتعليم الكتابة كان المعلم يمسك بيد المتعلم المبتدىء ويوجهها · ولربما كانوا يناولون صغار التلاميذ قطعا من الحلوى فى شكل حروف · وكان التلاميذ يعتمدون الحافظة الى حد بعيد ، وكذلك التقليد والتنافس · وكانوا يكتبون عادة على لوحات من الخشب الصقيل او من الشمع ، وفى بعض الاحيان كانوا يكتبون على شقف من الخزف المشوى · واما الاقلام فكانت مبرية من القصب مثل اقلام الكتاب تماما · وكان الحبر يوضع فى محابر من الخزف شبيهة جدا بالتى نستعملها بمدارسنا اليوم ، وقد نشر الاستاذ بيكار صورا لهذه المحابر فى مجموعته التى اسماها (CASTELLUN DIMMIDI) ـ الجزء الاول اللوحة عدد 8 ·

وكان الصبيان يجلسون على مقاعد خشبية بسيطة حول المجستر الذى كان يستوى على اريكة موضوعة على دكة يشرف منها على جميع التلاميذ · وقد كان يساعده احيانا مكرر من قدماء التلاميذ (27) ·

(26 Voir Quintilien — De la formation de l'orateur. Livre II — Traduction de Nisard.

(27 Marrou — l'Histoire de l'Education dans l'antiquité page 362

لم يكن الضرب محجرا بالمدارس فى ذلك العهد ، بـل كان المعلمون يبدون شدة نحو الاطفال • فكانوا يضربونهم باليـد او يجلدونهم بالدرة ، ولم يكن الجلد عـلى الرجلين كما كـان الحـال بكتاتيبنا بل كان الطفل يجلد على مـا غلظ من جسمه العـارى • فبينما يحمل احد التلاميذ الطفل المعاقب على ظهره يمسك آخـر بـرجليه ، وعنـد ذاك يشـرع المجستر فى ضرب الجسم العارى (28) حتى ان الاطفـال كـانـوا يكـرهون التعليم ويستعملـون ضروب الحيل للتخلص من دروس المجستر • وفى هذا الصدد يقول القديس اغستيانوس فى الصفحة 24 من الجـزء الحادى والعشرين من كتاب « مدينة الاله » (La Cité de Dieu) ما نصه :

ان العمل المفروض عـلى التلاميذ بحد العقاب امر مؤلم الى درجة ان الصبيان كانوا يفضلون احيانـا الم العقاب عـلى العمـل المضنى • ومن ناحية اخرى فلو خير المـرء بين العـودة الى صباه وبين الموت لفضل الموت » •

كان الصبيان يؤممون المدرسة صباحـا ومساء ، وكـانت العطلة السنوية تبتدىء فى اواخـر شهر جـويلية وتنتهى فى اواسط شهر اكتوبر •

والى جانب هذا التعليم المدرسى كان الاطفال ، مهما كانت

---

28) انظر الصورة التى اوردها الاستاذ احمد صفر فى الصفحة 359 من الجزء الاول من كتاب « مدنية المغرب العربى » الآنف الذكر .

مراحل التعليم التى ينتمون اليها ، يقصدون كل مساء النوادى الرياضية • فالرياضة كانت فرضا واجبا على كل تلميذ وكل طالب •

التعليم بالمرحلة الثانية

بعد ان يتحصل الطفل على مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، يوجه الى التعليم الثانوى ، وقد ناهز الثانية عشرة من سنيه • وكانت بجل القرى والمدن الافريقية مدارس ثانوية تسمى (LUDUS) • فاكبر الكتاب والمفكرين الافارقة تلقوا تعلمهم الثانوى بمدارس قراهم • فهكذا تعلم الكاتب البربرى الشهير ابوليوس (APULEE) بمدرسة مسقط راسه قرية مداوروش (بالجزائر) كما ان القديس اغستيانوس تلقى تعلمه الثانوى بمدرسة بلدته ثاقاست (بالجزائر) •

وغالبا ما كا ن الاستاذ وليد البلدة نفسها • واذا ما فقد استاذ من ابناء البلدة سعى الاعضاء البلديون الى جلب اساتذة من الدوائر البلدية المجاورة او البعيدة • وكانوا يجرون مناظرة على الراغبين فى التدريس • ولكن اذا ما فقدت المزاحمة بفقدان المترشحين انتصب الراغب الوحيد باحدى البناءات العمومية طيلة يوم كامل تحت طلب كل من يريد ان يختبر معلوماته (29) •

كان الاستاذ غالبا فى مستوى وظيفته ، كما تدل على ذلك بوضوح مشاهد القبور وخصوصا مؤلفاتهم • فلقد نبغ من

(29 La Civilisation de l'Afrique Romaine par Gilbert Charles Picard — Page 300

بين هؤلاء الاساتذة الاقليميين عدد وافر سوف نستعرض البعض منهم فيما بعد ٠

لم تكن مهنة الاساتذية لتدر على صاحبها الغنى ، بل كانت كغيرها من المهن الفكرية تقوم بصاحبها الى حد الكفاف ٠

كان التعليم الثانوى مثنوى اللغة ، فكان الطلاب يتعلمون اللغة اللاطينية واللغة اليونانية معا ٠ وقد كانت هذه الاخيرة تحظى بالاسبقية حتى حدود القرن الاول المسيحى ، لانها لغة العلوم والآداب والفلسفة ، لكن طغت عليها اللغة اللاطينية فيما بعد لسبب حاجة الناس اليها فى الحياة العامة ، ولان كتابها تكاثر عددهم وقد نبغ منهم الكثيرون٠

كانت برامج التعليم تشتمل على مواد متنوعة مثل تفسير النصوص ، والنحو ، والعروض والموسيقى ، والعلوم الطبيعية والرياضية.واشهر الكتاب الذين كانت تدرس نصوصهم ضمن البرامج هم شيشرون وفرقيلوس وصالوست وتبرنشى . ولكن الطلبة الافارقة كانوا يفضلون النصوص المستمدة من كتاب افارقة او من كتب تتحدث عن الحياة الافريقية . فمن بين نصوص صالست كانوا يفضلون تاريخ الامير البربرى يوغرطا ، ومن بين مؤلفات فرقيلوس كانوا يتعشقون قصائده التى تحدث فيها عن الاميرة عليسة مؤسسة مدينة قرطاجنة ٠ واما الكاتب البربرى ابوليوس المداوروشى فكان معبودهم الذى لا يملون دراسته ابدا.

وقد بلغ هيام الافارقة بكتابهم ان خصوا الجزء الثانى من

مجموعة النصوص الادبية التى كانت تدرس بمدارس قرطاجنة الثانوية بكتاب كلهم افارقة (30) ٠

واما طريقة تدريس النصوص فكانت بسيطة ، اذ كان الاستاذ يتناول النص بالقراءة والشرح تباعا ، ثم يامر الاطفال بالقراءة الواحد تلو الآخر (31) ٠

كانت المدارس الثانوية انواعا ، منها المدارس الحرة التى كان يتعلم فيها الطلبة مقابل اجر يدفعونه لاستاذهم مشاهرة ، ولم تكن هذه المدارس خاضعة لرقابة الحكومة او البلديات ٠

وكانت هناك مدارس بلدية تنفق عليها البلديات وتراقب برامجها وسير التعليم فيها ، كما كانت توجد مدارس اسسها الخواص من محبى العلم وحبسوا عليها الاحباس ٠

واما التعليم الحكومي فلم يظهر الا فى غضون القرن الثانى المسيحى حيث اخذت حكومة الاباطرة تهتم بشؤون التعليم ، فسنت قانونا يقضى بان تتكفل الحكومة الرومانية بشأن التعليم ومراقبته وبالانفاق عليه (32) ٠

وكان الاساتذة مثل الاطباء العموميين معفون من تكاليف عديدة كالضرائب والخدمة العسكرية وايواء الجنود ٠

(30 Saint-Augustin — Les Confessions Tome 1 — Pages : 13 — 16

(31 Marrou — Histoire de l'Education dans l'Antiquité

(32 Paul Monceaux — Les Africains — Page 75 Paris 1894

وكان الاباطرة الرومان لا يدخرون جهدا فى نشر المعرفة • فكانوا يشيدون المدارس، وينتدبون الاساتذة •« وقد خصص الامبراطور اسكندر سيفيروس (البربرى الاصل) اعانة مدرسية للطلبة من ابناء الاسر الفقيرة » (33) •

التعليم بالمرحلة الثالثة

كان يتولى التعليم بالمرحلة الثالثة استاذ البلاغة الريتور (Le Rhétor) فبعد ان يتم الشاب تعلمه الثانوى يقصد مدرسة البلاغة التى كانت تعنى على الاخص بتعليم الطلاب الفصاحة والبلاغة التى كانت شرطا واجبا ليعد المثقف مثقفا • فكان على كل مواطن ان يسعى جهده لاكتساب القدرة على الخطابة فى الساحات العمومية ، وذلك سعيا وراء الاحراز على شرف العضوية بالمجالس البلدية والقدرة على المرافعة لدى المحاكم والمؤسسات العمومية للدفاع عن حقوقه •

فلذلك كان يوجد اساتذة فى البلاغة فى كل قرية وفى كل بلدة • وقد دامت هذه المؤسسات حتى القرن السادس بعد المسيح • فلقد عثر الاستاذ بيكار باطلال مكثر (بتونس) على لوحة رخامية تحمل اسم البليغ (ALURIUS GEMINUS) (34) •

وكان يشترط فى استاذ البلاغة ان يكون ذا ثقافة واسعة •

(33 id. id. id. Page 62 Paris 1894

(34 Bulletin de l'Afrique Chrétienne. 1950 — Page 160

حاويا لشتى العلوم قوى الحجة حتى يمكنه ان يسدد رغائب جميع الطلبة الذين يفدون عليه ، مهما كانت ميولهم ورغباتهم ونزعاتهم ٠

ولم تكن مدرسة البلاغة مقتصرة على تعليم البلاغة ، بل كانت تدرس ايضا التاريخ والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية والشعر ٠

ومن المعلوم ان هذا التعليم الممتاز كان من خصائص ابناء الاسر الثرية والنبيلة الذين كانوا يتأهلون اما للوظائف السامية او للخطط الحرة كالمحاماة ٠

التعليم العالى

بعد ان يتم الطالب تعلمه الثانوى والثالث يؤم جامعة قرطاجنة الشهيرة وقد ناهز السادسة عشرة من سنيه ٠

قبل التحدث عن جامعة قرطاجنة لعله من الجدير ان نستعرض مراكز ثقافية افريقية اخرى ازدهرت فيها الآداب والفنون اليونانية بصفة جديرة بالاهتمام ، وذلك طيلة القرنين الأولين الذين عقبا الاستيلاء الرومانى على افريقية ٠

فى تلك الحقبة من الزمن لم تكن قرطاجنة التى بعثت من جديد مركزا للثقافة والفنون ، بل كانت مدينة شرشال عاصمة

موريطانيا (35) وقتذاك هى التى تشع بالثقافة الهيلينية • فكان المتربع على عرش هذه المدينة فى النصف الثانى من القـرن الاول قبل المسيح الامير البربرى يوبا الثـانى الذى اعتنى يـوليوس قيصر بتثقيفه • فكان متضلعا فى الفلسفـة والنحـو والبـلاغـة والتاريخ ، وله مؤلفـات عديدة حررها باللغة اليونانية ، وعلاوة على ذلك فقد كان نقادا فنيا (36).

واذ كانت ثقـافة هذا الامير يونانية عمد الى جلب اساتذة يونان الى عاصمته ، ولف حـولهم ثلة من الشباب الافريقى • فعمت الثقافة الهيلينية ربوع افـريقية الرومانية بوجه عام وموريطانيا بوجـه خـاص •

ومن المراكز الثقافية الهامة الجديرة بالذكر مدينة قرطـة (CIRTA) (قسنطينة) ومـداوروش (MEDAURUS) وشقـب النـار (SICCA VENERIA) (الكاف) وحضرموت (HADRUMETE) (سوسة) بلـد البانوس الذى طمح الى التربـع على عرش رومة ، وليبتيس مغنا LEPTIS MAGNA (هنشير لبدة بطرابلس الغرب) بلـد سبتيموس سافروس البـربرى الذى كان امبراطورا برومة. وكل هذه المراكز الثقافية كانت متأثرة بالعلوم الانسانية الهيلينية الى حد بعيد •

وما تاخرت مـدينة قرطاجنـة عن ركب الثقـافـة طيلـة القرنين الاولـين اللذين عقبا الاحتلال الرومانى ، الا لان الرومان

(35) لم يكن لكلمة موريطانيا مدلولها اليوم بـل كانت موريطانيا تشمل غـربى الجـزائر والمغرب الاقصى وكانت عاصمتها الشرقية مدينة شرشال وعاصمتها الغربية مدينة طانجة

(36) راجع كتاب مدنية المغرب العربى للاستاذ احمد صفر ـ مطبعة العمل ـ تونس 1959

الذين كانوا منتصبين بها كانوا رجال اعمال، امموا البلاد الافريقية للاثراء ، فشغلتهم الحياة المادية عن الحياة الفكرية . فكانوا يعنون بالبناءات الضخمة والطرقات والجسور والفلاحة اكثر من اعتنائهم بالنشاط الفكرى .

ولكن ابتداء من القرن الثانى المسيحى اخذت مدينة قرطاجنة تستعيد مجدها الثقافى وتحتل المكانة اللائقة بها فى ميادين العلوم والآداب والفنون ، وقد ذاع صيتها وعلا كعبها فى المضمار الثقافى حتى « اخذت الوفود الحشيدة تتقاطر عليها من كل حدب وصوب مؤممة مختلف كليات جامعتها التى طبقت شهرتها العالم الرومانى باسره ، حتى انها اصبحت تفاخر وتنافس جامعتى رومة واثينا » (37) .

كانت برامج التعليم فى جامعة قرطاجنة متنوعة جدا، فكانت تشتمل على جميع مناحى التفكير البشرى ، من آداب ، وفلسفة ، ولغة ، وحقوق ، وطب ، ورياضيات ، وفنون جميلة كالموسيقى ، والرسم، والنحت وكانت اللغتان اليونانية واللاطينية تستعملان على حد السواء (38) .

وكان الطلبة شغوفين بالخطابة والفصاحة والشعر ، الا انهم كانوا على غاية من التهور والجموح . فكانوا يحدثون الهرج فى انحاء المدينة ويعتدون على السابلة ويرتكبون كل ما تمليه عليهم نزوات الشباب الجامح .

(37 Paul Monceaux — Les Africains — Page 58

(38 id. id Page 6

ومع ذلك كانت جامعة قرطاجنة على درجة عالية من الحيوية والنشاط ، وكان اساتذتها يفاخرون بها ٠ واليكم ما يقوله الكاتب المداوروشي ابوليوس الذى كان من ابرز اساتذة الجامعة القرطاجنية ، وقد وقف خطيبا يوم احتفال الجامعة السنوى، وسط جمع من الطلبة والاساتذة ، وهذا ما يدل على اعتزاز الافارقة بجامعتهم وبمدينتهم الخالدة :

« اى داع للشرف اعظم من الاحتفال بقرطاجنة ؟ فانى لا ارى من بينكم فى هذه المدينة الا رجالا مثقفين ومتبحرين فى شتى العلوم ، ولا اشاهد من بينكم الا ولدانا راغبين فى الكرع من مناهل المعرفة ، وشبانا مقبلين على معين العلم، وشيوخا متصدين لنشر الثقافة . فياقرطاجنة ، ياعاصمة قطرنا المقدسة ـ قرطاجنة يا ربة الالهام الافريقى ـ قرطاجنة يا ام الشعب الذى ارتدى حلة المجد ٠٠٠ (39)

يبدو انه لم توجد بناية خاصة حاوية لمختلف الكليات ، وانما كانت كل كلية على حدة على غرار جامعة رومة ٠ ومن المعلوم ان كل كلية كانت مجهزة بمكتبة وضعت مصنفاتها تحت طلب الاساتذة والطلاب ٠

الهجرة الى الخارج

وما كانت جامعة قرطاجنة ، على ذيوع صيتها وعلو كعبها

(39 Les Florides Chapitre IX — Page 9

ووفـرة علومها ، لتشفى غليل الشبـان الافـارقـة المتعطشين للمعرفة • فلقد كان الكثير منهم يـولون وجـوههم شطر البـلاد الايطالية او اليونانية للاستزادة من العلوم والاختلاط بالاقـوام الاخرى والتعرف على العالم •

واما الاساتذة فكانوا يهـاجـرون هـم ايضـا الى رومـة ومستعمراتها عارضين بضاعتهم العلمية طلبـا للرزق ، وكان لهم فى ذلك سوق رائجة وربح وفير •

المـراكز الثقـافية الاخـرى

لم تكن معاهد التعليم وحدهـا مـراكـز لنشـر الثقافـة والعرفان ، بل كانت هناك علاوة على المدارس والجامعات مـراكز ثقافية اخرى ، وتلك كالمكتبات العمومية ، فمكتبة قرطاجنة التى لم يعرف موقعها بالضبط حتى الآن كـانت تضم مئـات الآلاف من المجلدات •

ومما يـدل عـلى اهميـة المكتبات واعتناء الناس بها هو ان المـواطن (FLAVIUS) فـلافيوس وهب مكتبـة تمقاد (بالجـزائر) 400 000 مجلدا (40) •

لم يهتد الاثريون الى التعرف على موقع مكتبة قرطاجنة بصفة مدققة ولكن بالتنظير والمقـارنة بمكتبة تمقاد يمكن ان نتصور ما كانت عليه المكتبات العمومية فى ذلك العصر •

(40) Charles Courtois — Timgade — Page 25

كانت المكتبة تشتمل على بهو تحيط به حنايا واساطين ، وعلى قاعة فى شكل نصف دائرة تصطف على جوانبها خزائن الكتب. وبوسط الجدار الهلالى الشكل محراب ياوى الالهة مينرفة حامية الحكمة (41) ٠

نعم لم يكن بجميع المدن امثال هذه المكتبة الفاخرة ، لكن كانت بكل مدينة وبكل قرية حمامات ، وكان يوجد بكل حمام ضروب من وسائل التسلية والترفيه والتثقيف ، من بينها المكتبات العمومية ٠ فلربما قضى المواطن بياض يومه فى الحمام حيث يستحم ويتسلى ويلهو ويطالع ويقصف ويشرب ٠

وكذلك كانت المعابد والهياكل الدينية تحوى مكتبات يطالع كتبها القساوسة ومن ينتمون الى الدين ، ولربما عموم الناس ايضا ٠

واما المحاضرات والمسامرات فكانت تلقى بقاعات التحاضر ، واذا ما فقدت هذه القاعات ببلدة اتخذوا المسارح لهذا الغرض ٠

وبهذه المناسبة نذكر على سبيل التفكه الدعابة التالية :

ان السير ونستون تشرشيل ، رئيس الحكومة الانكليزية ابان الحرب العالمية الثانية. زار البلاد التونسية اثر جلاء جيوش المحور عنها ، واراد ان يجتمع بجنود الجيش الثامن الانكليزى ليهنئهم بالنصر الذى كسبوه ٠ وكان وقتئذ مقيما بمدينة

---

(41) id. id. Page 26

ملعب الجم

مسرح دقة

قرطاجنة ، ولم يكن بها فى سنة 1943 قاعة للتحاضر فجمعهم بالمسرح الرومانى وخطب فيهم .

واما الموسيقى فكانت تستلزم قاعة مغلقة مبنية على شكل خاص وتسمى اوديون (ODEON) . فكانت قرطاجنة من المدن الرومانية القليلة التى كانت مجهزة بهذا النوع من الاستديوهات . وقد بنى هذا الاوديون البروقنصل (Vigellius SATURNIUS) باذن من امبراطور رومة (Septimus SEVERUS) البربرى الافريقى (42) .

ومن اكبر المعاهد الثقافية العمومية المحببة للشعب المسارح (Théâtres) والملاعب (Amphithéâtres) . وما كانت مدينة من المدن او قرية من القرى تخلو من مسرح ، الامر الذى يدل على انتشار الثقافة فى العهد الرومانى ، وتذوق الشعب الانتاج الفكرى ، فمن المسارح التى ما زالت قائمة الذات الى حد الآن مسرح قرطة ودقة وتمقاد وشرشيال وسبيطلة والجم والقصرين ولبده وغيرها . وكانت الروايات تمثل نهارا ، واما المسارح فكانت غير مسقفة .

وأكبر ملعب شيد بافريقية الرومانية ملعب الجم (بتونس) الذى دام بناؤه من سنة 230 بعد المسيح الى سنة 238م وهو يسع 30 000 مقعد للمتفرجين (43) ولكنه على عظمته

(42 Colette Picard - Carthage P.P. 43 et 95

43) ضبط هذا العدد المهندس الكسندر ليزين Alex. LEZINE بالعدد 31 ـ السنة الثامنة من مجلة Les Cahiers de Tunisie تونس 1960

ياتى فى المرتبة السادسة بعد ملاعب شيدت بالبلاد الايطالية ·

وقبل التحدث عن اشهر الاساتذة الذين كانوا يـدرسون بمختلف المعاهد العلمية والفنية الافـريقية ، لعلــه من المناسب الالمام ولو فى ايجاز بادوات الكتابة التى كانت تستعمل بافريقية فى العصر الرومانى :

الـــرق : ان الجلود الحيوا نية اقدم وسيلة عرفت للكتابة خصوصا عند الفرس وبنى اسرائيــل وهى ما تسمى بالــرق · فكان الكاتب فى العصور الاولى لا يستطيع الكتابة الا على وجهها الباطنى فلذلك كانت تدحرج ادراجــا · ثم تــرقت صناعتها من الناحية الفنية فاصبحت ملساء يكتب عــلى وجهيهــا البــاطنى والخارجى وهذا النوع يدوم اكثر من الرق كما عرف اولا ، وكان فى الامكان تسفيرها على شكل كتاب ، وكان فى المستطاع ايضا مسح كتابتها ليكتب عليهــا من جديد (44) ·

البــردى : ان شجرة الكاذغ لم تنجح فى اى مكان نجاحها فى دلتــا النيـــل بالبلاد المصرية حيث فقدت منها اليوم ، ولكنهــا ما زالت باقية الى حد الآن بجزيرة صقلية حيث وطنها العرب فى غضون القرن العاشر المسيحى (القــرن الثالث للهجــرة) · وهى عبارة عن نوع من القصب يبلغ ارتفاعه اربعة امتار ونصفا تقــريبا وتحمل مجموعة من القنى المثلثة الشكــل تحــوى نسيجا خلويــا بداخله لباب هو المــادة الاولية لضنع الــورق ·

44) Mommser — La Vie privée des Romains — Tome 15 Traduit de l'Allemand par Victor Henry Tome II P.P. 489 — 490

يقد ذلك اللباب سيورا على غاية من الجودة والدقة ثم تصفف تلك السيور متوازية على لوحة مبللة بالماء ، وعلى هذه الطبقة التى سبق ان دهنت بملصق نشوى تصفف طبقة اخرى من السيور الدقيقة فى النحو المعاكس بحيث تتصالب السيور السفلى والعليا على زاوية قائمة مثل سدى النسيج ولحمته ، ومن الراجح ان توضع هذه الطبقات فى مكبس وتدق وهى نديئة ، ثم تعرض للشمس لتجف ، واخيرا تصقل لازالة ما قد يعلق بها من الاجسام الغريبة .

فى العصر الرومانى كانت صناعة البردى من خصائص البلاد المصرية وخصوصا الاسكندرية .

لم تكن الكتب معروفة فى القديم بل كان الرق او البردى على شكل ادراج تدحرج وتوضع فى كنانة . فكان الكاتب او القارىء يبسط تباعا الدرج الملفوف حول محور من الخشب . وكان عندما يريد الكتابة لا يستعمل منضدة او مكتبا بل كان يضع الورق فى حجره على ركبته (45) مثل الكتاب العموميين الذين نقشت صورهم على الاهرام .

(45 Mommser — La Vie privée des Romains — Tome 15 — Traduit de l'Allemand par Victor Henry Tome II — Page 475

الفصـــل الــرابــع

رجـال الفكر الافارقة في العهد الـرومانى

ان رجـال الفكر الافارقة الذين أنجبتهم افريقية الرومانية لا يحصى لهم عديد • فلقد نبغوا فى كـل الميـادين الفكـريـة ، وانتجوا انتاجا غزيرا رائعـا فى جميع مناحى التفكير البشرى ، وكانوا يحررون مـؤلفاتهم باليونانية فى العهود الاولى ، ثـم فى اللغتين اليونانية واللاطينية فى العهود الوسطى ، واخيرا اقتصر اغلبهم على اللغـة اللاطينية فى العهود الاخيرة اى عهود الانحطاط السياسى الرومانى •

كان الكتاب الافارقة خطباء وفصحاء وبلغـاء اولا وبالذات ، وقـد تعـاطى اغلبهم التدريس بمسقط رؤوسهم وبقـرطاجنة ، وحتى بروما ومستعمراتها •

لـم يطل عصر التقليد عندهم ، بـل لم تعمر تبعية الآداب الافريقية للآداب الغربية طويلا • فابتداء من فجر القرن الثانى الميلادى اخـذت الآداب بافريقية الـرومانيـة تتقمص شخصيـة مستقلة تتسم بسمة شرقية افريقية عـريقة تميزت عن الطابـع الرومانى بصورة جلية • ذلك ان الافارقة شرقيون قبل كل شىء ، وقد اثر فيهم الشرق تاثيرا عميقا منذ دهـور واحقـاب • فكـان

الكتاب الافارقة يتميزون بثراء الخيال وسعته، وبحساسية رقيقة تعلوها احيانا مسحة من الكآبة والتأسى . وكانوا يعربون عن تأثرهم العميق بمشاهد الطبيعة . كما ان الآداب الافريقية كانت مفعمة بروح التصوف ، وهذه ايضا ظاهرة شرقية . ومن المتناقضات الداعية للاعجاب ان تكون هذه الآداب رغم نزعتها الصوفية تميل الى الروح العملية فكان غالبها يرمى الى غاية معينة ويهدف الى اقناع القارىء واستهوائه .

واما اسلوبهم فكان هو الآخر اسلوبا شرقيا رنانا فى لفظه مفعما بالصور الخيالية والتشابيه والكنايات ، مدبجا بالمجاز ، وموشى بالاستعارة ، فلم يخل من المبالغة فى التعبير والامعان فى التصوير .

وكان الكتاب الافارقة يعتزون بقوميتهم ويتجاهرون ببغضهم للرومان كما سوف نرى ذلك فيما بعد .

وكان الرومان يستهجنون هذه الآداب الافريقية ويحتقرونها وينسبون اليها فساد الذوق ويرون انها غير فصيحة فى مبناها بل محررة فى لغة مبتذلة ومتأثرة بالرطانة الاقليمية وبعيدة فى روحها عن الذوق الرومانى .

ولكن ما ان توسط القرن الثالث المسيحى واغتصب الافارقة الملك من يد الرومان وتربع ابناء افريقية على عرش رومة حتى طغت الآداب الافريقية على الآداب الرومانية الاصلية ، فاضفت عليها روحها وفرضت ذوقها وخلعت اساليبها على الرومان

الذين اصبحوا مقبلين عليها اقبالا ملحوظا خصوصا وان الهيلينية المنبعثة استأنفت زحفها على بلاد الرومان واخـذت تكتسحها من جديد ثقافيا وروحيا • فلم تجد اللاطينية منجاتهـا الا فى اولئك الكتاب الافارقة الذين حـافظوا على كيانها وانقذوها من الذبول والانهيار • فهذا ما يفسر هجرة الكثير من الاساتذة الافارقة الى البلاد الايطالية خلال القرنين الثالث والرابع م•

يمكن ترتيب رجال الفكر الافارقة الذين خلدوا تراثا ثقافيا على العهد الرومانى الى خمس طبقات •

اولا : طبقة المتهلنين وهى التى عاشت خـلال القرنين الاولين اللذين عقبا سقوط قرطاجنة • وكتاب هذه الطبقة كانوا متاثرين بالعلـوم الانسانية الهيلينيـة •

ثانيا : الطبقة المخضرمة التى ظهـر فيهـا كتاب كتبـوا باللغتين اليونانية واللاطينية • وقد تميزت هذه الطبقة بآداب افريقية وروح افريقية صميمة • وقد عـاشت من اواسط القرن الاول الى اواخر القرن الثانى م•

ثالثا : طبقة الاباطرة الافارقـة التى كـانت خصبة جـدا بالكتاب والمفكرين ، وقد عاشت هذه الطبقـة فى غضون القـرن الثالث م•

رابعا : طبقـة المتنصرين التى ظهرت اثنـاء القرن الرابـع وفى النصـف الاول من القـرن الخامس م•

خامسا : طبقة الانحطاط وهى التى عـاشت فى العهـدين الوندالى والبزنطى ٠

وها نحن نستعرض فى ايجاز كتاب هذه الطبقات على التوالى:

الطبقـــة المتهلنـــة

اثناء القرنين اللذين عقبا سقوط قرطاجنة، اى من اواسط القرن الثانى قبل المسيح الى اواسط القرن الاول بعده ، لم توجد فى ايطاليا نفسها آداب لاطينية محضة بل كانت الثقافة الهيلينية هى السائدة٠ فباستثناء شيشرون وفيرقلوس لم تنجب ايطاليا كتابـا لاطينيين جديرين بهذا الاسم ، وحتى هذان الكـاتبان لـم يدخلا فى الدراسات الكلاسيكية الا بعد وفاتهما بمدة طويلة ، فما بـالك بافريقية الرومانية التى تقلدت العلوم والثقافة الهيلينية قبل رومة نفسها ؟

ابرز وجوه هذه الطبقة هو الامير يـوبا الثانى (JUBA II) الذى عرجنا عليه آنفـا ٠

ولـد هذا الامير بموريطانيا سنة 50 قبـل المسيح ٠ ولما انتحر ابـوه سنة 46 ق٠م٠ كان عمـره اذ ذاك اربـع سنوات ٠ فاخذه يوليوس قيصر معه الى رومـة ٠ وقـد اعتنت بتـربيته وتهذيبه الاميرة اكتافيا (OCTAVIA) أخـت القيصـر اغسطس ٠ فتلقى برومة تربية ملكية عـالية وتعلـم بالمـدارس الايطـاليـة المتهلنة ٠ ولما بلغ اشده رجع الى بلاد موريطانيا حيث تـربع على

عرش ملكها خلفا لابيه يوبا الاول واتخذ مدينة يول (IOL) عاصمة له واسماها قيصرية (CAESAREA) اعترافا بالجميل ليوليوس قيصر ولى نعمته . وهى مدينة شرشال اليوم .

وكان هذا الملك مشهورا بتآليفه وتصانيفه واعماله الفكرية اكثر من اشتهاره بالملك .

يعتبر يوبا الثانى من أكبر المؤرخين وعلماء الجغرافيا والطبيعيات والشعر والفنون المختلفة .

« وقد الف هذا الامير كتبا عديدة نذكر منها : كتاب الليبيات (Les Lybica) فى ثلاثة اجزاء . وهو يشتمل على مواد مختلفة تتعلق بافريقية من جغرافيا وتاريخ واساطير ميثولوجية وطبيعيات وغير ذلك ... كما الف كتابا حول جزيرة العرب (Les Arabica) ، وتاريخ الرومان ، وكتبا كثيرة فى فنون الرسم والتشخيص والموسيقى وفى اللغة ، وهى مصنفات كثيرة لم يصلنا منها شىء » (46) .

ومن بين كتاب هذه الطبقة الكاتب البربرى ديونيسيوس (DIONYSIUS) وليد مدينة اوتيكا (UTIQUE) (هنشير باش شاطر بين تونس وبنزرت) الذى ترجم موسوعة ماغون الفلاحية الى اللغة اليونانية .

---

(46) كتاب مدنية المغرب العربى فى التاريخ للاستاذ احمد صفر ص 68 بوسلامة. تونس 1959

ويجدر ان نذكر ايضا من بين علماء ذلك العصر العالم القرطاجنى هصدروبعل (HASDRUBAL) الذى هاجر الى البلاد اليونانية حيث اسس اكديمية علمية ٠

الطبقة المخضرمة

ابتداء من اواسط القرن الاول المسيحى اخذت اللغة اللاطينية تزاحم اللغة اليونانية بافريقية بصفة جدية ، وذلك للاسباب الاجتماعية والسياسية التى ذكرناها آنفا ، فظهر فى ذلك العصر كتاب افارقة كتبوا فى اللغتين ٠

واشهر هؤلاء المخضرمين هم :

الشاعر مانيلوس (MANILUS) الذى الف كتاب الفلكيات (Les Astronomiques) ٠ واما فى النثر فقد اشتهر كرنوتوس (CORNUTUS) وسيفيروس اللبدى (SEVERUS de LEPTIS) وهؤلاء الذين كانوا من الرعيل الاول لم يسلموا من التقليد الذى هو ظاهرة حتمية لكل تطور ٠

وبعد هذه الطليعة من المفكرين الافارقة برزت فى غضون القرن الثانى طبقة من ذوى اللسانين تحققت بفضلهم الشخصية الافريقية العلمية حتى طبق ذكرهم الآفاق فنخص بالذكر منهم :

البليغ فرنطون القرطى (FRONTON DE CERTA) المولود بمدينة قسنطينة فى اوائل المائة الثانية ٠ تلقى فرنتون تعلمه الابتدائى والثانوى بمسقط راسه ، ثم ارتحل الى قرطاجنة لمواصلة تعلمه العالى ٠ واخيرا ولى وجهه شطر مدينة رومة حيث

انتصب للمرافعة امـام المحاكم ،ذلك انه كان على غاية من الفصاحة والبلاغة ، وكان يعد من اكبر محامى زمـانـه ، وقـد انتخبـه الامبراطور انطونان استاذا ومربيا لمتبناه مـاركوس اوريلـوس (Marc Aurèle) الذي صار فيما بعد امبراطورا على رومة • واعترافا بالجميل اولى هذا الاخير استاذه ولايـة صقلية •

ابولينير القرطاجنى (Apollinaire de Carthage) المـولود حـوالى سنة 100 والذى كان نحويا ضليعا وعالمـا نحريـرا ، فلقد انتصب للتعليم بجامعة قرطاجنة ثم بمدينة رومة حيث اسس مدرسة ، واخيرا سمي بروقنصلا •

والذى كان اشد الافارقة خطرا ، واحدهم ذكاء ، وافصحهم لسانا ، وأبلغهم لهجة ، وأوسعهم علمـا هو الكـاتب ابـوليوس المداوروشى (APULEE de MADAURUS) [*]

ولد هذا العبقرى حـوالى سنـة 125 م بقـرية مداوروش بالجزائر حيث تلقى تعلمه الابتدائى والثانـوى • وكـانت هـذه القـرية مشهورة بمدارسها يـؤممها الطلبة من كل مكان •

كان ابوليوس نقادا ونحويا ومؤرخـا وشاعـرا وخطيبـا وفيلسوفـا وعـالما • فألف فى الفلسفة وفى الزراعة وفى الفيزيا وفى وظائف الاعضاء وفى العلوم الطبيعية • وكـان ايضا كـاتبا روائيا قديرا • فمن مؤلفاته الروائية الفلسفية « حمار الذهب » و « الفلوريدا » • ولربما ابتدأ درسه او خطابه باللغة اللاطينية واتمه باللغة اليونانية ، وقد كان متضلعا فيهما معا •

وقد طـاف الامبراطورية الرومانية باسرها ، وكلما حـل بقوم من الاقـوام الا وسحرهم بفصاحته النادرة وسباهم ببيانه الاخاذ ، حتى انه رفعت به قضية لدى المحاكم ببلاد اليونان ، اتهم فيها بانه سحر امرأة ذات جمال فتان ، فاحبته حبا جنونيا • فلما مثل امام المحكمة شرع يناضل عن نفسه ببلاغـة فائقة وفصاحـة نادرة اقتلع بهما اعجاب حكامه الذين سحرهم ايضا ببيانه ـ وان من البيان لسحرا ـ فلم يتمالكوا ان خلوا سبيله معتذرين •

وقد ظلت تلك المـرافعة الفصيحة مضرب الامثـال ناهيكم بان كل مرافعة بليغة اصبحت من ذلك التاريخ تسمى ابـولوجيا (APOLOGIA) نسبة الى ابوليوس.

وكان ابوليوس معتزا بقوميته الافريقية وبنسبته فكـان يقول : « انا نوميدى وجـد الى نصفـا بنصف » كما كان يقول : « انا لا اخجل من انتسابى الى وطنى نوميديا » •

وقد انجبت مدينة سوسة اسرة البينوس التى اشتهر منها البينوس الحضرموتى الذى كـان خطيبا مصقعا وفقيها متضلعـا فى الحقوق •

ومن ابنـاء حضرموت ايضا نـخص بالـذكـر صلفيـوس جـوليانوس (SALVIUS JULIANUS) الذى كان متفقها فى القانون حتى انه كان يعد أكبر فقهاء زمانه • وكان له تلميذ تخرج عليه وبلغ مبلغه يسمى كسيوس الافريقى (CASIUS L'AFRICAIN) (47).

---

(47) راجـع تاريخ سوسة (HADRUMETE) للاستاذ فـوشى

طبقـة الاباطـرة الافارقـة

ما ان أطل فجر القرن الثالث المسيحى حتى شرع الافارقة فى شن حملـة واسعة النطـاق لغـزو البلاد الايطالية سياسيا وثقافيا وروحيا • وهى لعمرى ظاهرة تاريخية غريبة فى بابهـا فألامة المغلوبة على امرها تحتل الامة الغالبة لا بحد السلاح وانما بحد القلم والروح • فهذه الظاهرة لمن اكبر الادلـة على عبقريـة الافـارقة •

ان مدينة اثينا وان هى غزت رومـة بثقافتهـا وفلسفتها وعلومها الانسانية ، الا انـه لم يتح ولو ليونانى واحد ان يتربع على عرش رومة مثلما اتيح ذلك للافارقة •

ان رومة الجبارة ، رومة العاتية ، رومـة المتهيمنة ، رومة المتكبرة اصبحت طـوع امر البرابرة الافـارقة الذين أخضعوهـا لارادتهم ، فظلوا حكامها المطلقين طيلة احقاب، واسيادها المشرفين على حظوظها عصورا ودهورا •

فلقد تعاقب على عرش رومة اباطرة أفارقة من آل البينوس مواليد سوسة ، وآل سفيروس من ابنـاء طـرابلس الغـرب ، ومكرينوس الشرشالى (Macrinus de CAESAREA) ، وآل غـرديانوس القرطاجنى (Les Gordiens).

وكان هؤلاء الامراء شغـوفـين بـالعلـم مكـرمـين لاهلـه ومشجعين للفنون •

كان القــرن الثالث خصبا جــدا بافريقية التى انجبت فى غضونه عددا وافرا من الفلاسفة والادبــاء والعلمــاء عــلى مختلف طبقاتهم ومللهم ونحلهم .

واذا مــا تأملنا فى العوامل التى دعت الى هذا الخصب الفكرى الوفير الذى بدأ بافريقية خلال القــرن الثالث نــراها تنحصر فى الامور التالية :

اولا : الاستعـــداد التليد الذى اكتسبه الافارقة منذ أزمان بعيدة وبرهنوا عنه طيلة العصور الخوالى والحاضرة .

ثانيا : كان الماسكون بــزمام الحكم بروما وبافريقية افارقة يعتزون بافريقيتهم ويحنون الى وطنهم ويعطفون على ابناء جلدتهم . او لم يجلب آل سافاروس الكثير من الكتاب والاساتذة الافارقة الى ايطاليا وأغدقوا عليهم العطايا وخلعوا عليهم الوظائف السامية؟ او لم يامر سبتيموس سافروس ببنــــاء الهيــاكــل والمــدارس بافريقية ؟ وقــد اشتد حب الاباطــرة الافــارقة لبلادهم وتعلقهم بماضيهــا حتى ان الامبراطــور كــركـــلا (CARACALLA) ابــن سبتيموس سافروس امــر بان ينصب تمثــال لحنبعــل بجميــع بلديات ايطاليا ـ او لم يامــر الامبراطور غرديانوس الاول ببناء ملعب الجم تلك المعجزة التاريخية التى ظلت الى الآن تقارع عوائــد الدهر منذ عصور .

ثالثا : والعامل الثالث الذى كان سببا فى خصب العلــوم والادب بافريقيــة هو ظهــور المسيحية بايطاليا وبمستعمراتها

فالبرابرة اقبلوا على هذا الدين الجديد الذى صادف هوى فى انفسهم لانه نادى بالاخوية والمساواة ، فاتخذوه مطية للاعراب عما تكنه افئدتهم ، ولمقاومة الرومان اعداء هذا الدين • فبرز من بين الافارقة كتاب فطاحل تصدوا للدفاع عن العقيدة الجديدة فى الظاهر ولمصارعة الهيمنة الرومانية فى الباطن •

نعم لم يعتنق جميع المفكرين الافارقة الدين المسيحى بل استمر منهم الكثيرون على وثنيتهم وتنصر منهم الكثير بعد تردد •

من اشهر رجال هذا العصر الذهبى الامبراطور سبتيموس سافروس حفيد الكاتب سافروس اللبدى الذى تحدثنا عنه سالفا •

ولد هذا الملك العالم سنة 146 م بمدينة لبتيس مقنا (Leptis Magna) (هنشر لبدة) بطرابلس الغرب فى اسرة سافاروس العريقة فى المجد • فبعد ان تلقى تعلمه الابتدائى والثانوى بمسقط رأسه ارتحل الى رومة ثم الى اثينا طلبا للعلم • فتضلع فى الاداب والفلسفة والقانون• وكانت له نفس طموحة جبارة • فانخرط فى الجيش الرومانى ، وسرعان ما بلغ رتبة جنرال• فعين قائدا عاما على رأس الحامية الرومانية الضاربة بمدينة ليون (LYON) عاصمة غالة • فاستمال الجيش بفضل سياسته ومهارته ، واحتل رومة ، وتربع على عرشها بوصفه امبراطورا • وقد دام الملك بيد آل سافاروس ربع قرن تقريبا •

الف سبتيموس سافاروس كتابا ضخما فى القانون بقى معمولا به اثناء القرون الوسطى وهو المسمى بالقانون الرومانى. وقد اقتبست منه الشرائع العصرية نظريات عديدة واستوحت منه احكاما كثيرة ·

ومن اشهر كتاب هذا العصر أيضا طرطوليانوس القرطاجنى 155 ـ 210 م (Tertulienus de Carthage) الذى عرف بنضاله عن المسيحية وقد الف فى هذا الغرض كتابه المشهور (L'Apologique) وكانت مؤلفاته تعد بحق من ابدع آيات الفن البلاغى اللاطينى ·

لقد قام هذا الكاتب بدور هام جدا فى النضال عن المسيحية وتوطيد اركانها حتى انه لا يمكن حصر عبقريته فى البلاد والزمان اللذين كتب فيهما بل تجاوزت ذلك النطاق فطبقت الآفاق ·

كان طوطوليانوس القرطاجنى خطيبا مصقعا ومناضلا محجاجا وبليغا مقنعا وفقيها متضلعا فى العلوم الدينية ·

ومن الجدير بالذكر ايضا نيميسيانوس القرطاجنى (Nemesianus de Carthage) الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث · فكان شاعرا واقعيا من نوع البرناسيان · فلقد نظم قصائد فى الصيد البحرى وفى الصيد البرى وفى الملاحة ، فكان شعوره كله مستمدا من مشاهد الطبيعية ·

وفى القرن الثالث ايضا اشتهر افريقيان بتضلعهما فى علم

العروض والقوافى وهما يـوبا (غير الامير يوبا السالف الذكر) وتيرنتيانوس الموريطانى (Térentianus le Maure) • وقـد اسس كل منهما مدرسة مذهبية فى علـم العروض • فيوبا ترك لنا كتابـا فى فن العروض (L'Art métrique) وامـا تيرنتيانـوس فقد نظـم أرجوزة فى علم العروض تحتوى على ثلاثة آلاف بيت •

وفى عهد الاباطرة ظهر بروما محام افريقي يدعى مينوقيوس فيليكس (Minucius Félix) الذى الف من بين مـا ألف روايـة تمثيلية سماها اكتافيوس (OCTAVIUS) ، قال فيها من جملة ما قال على لسان احد ابطاله :

• • • فنهب الاجوار ، وتهديم مدنهم وهياكلهم ومعابدهم ، وسبى الاسرى ، والشخوص الى العظمة بتحطيم الغير ، وارتكاب الجرائم ، تلك كانت سياسة رومولـوس وكل الملـوك والرؤساء الذين خلفـوه • فهكذا كل مـا يكسب الـرومـان ويعبـدون ويملكون انما هو اسلاب استحوذوا عليها بجراءتهم (48) •

واما القديس شبريانوس (Saint Cyprien) فقد ولد بقرطاجنة حوالى سنة 210 م • فكان بليغـا عبقريا ، وتعاطى المحاماة بمسقط راسه • وكـان من المسيحيين الشهداء الذين نالهم العذاب الاليم فى سبيل عقيدتهم وقـد ارتقى قبل استشهاده الى رتبة اسقف بقرطاجنة والف اثنى عشر تاليفا فى العلوم الدينية •

(48) Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne. Tome I page 465 par Paul Monceaux. Ernest Leroux-Paris 1901.

طبقة المتنصرين

ومن اعظم كتاب القرن الثالث وأشدهم وطنية البليغ ارنوبوس الكافى (Arnobus de Sicca) الذى ولد بمدينة شقب النار (Sicca Veneria) (الكاف) سنة 224 حيث تعاطى التدريس فكان عالما نحريرا وفيلسوفا كتب فى اللغتين اللاطينية واليونانية ٠

كان ارنوبوس معبود ابناء جلدته الذين كانوا يكبرون فيه الروح الوطنية المتدفقة والحماس المتقد، على ان اغلب كتاب القرنين الثانى والثالث كانوا يتغنون بوطنيتهم ويمجدونها ويتجاهرون ببغضهم للرومان المحتلين ٠ وقد تخرج على هذا الاستاذ تلاميذ كثيرون اشتهروا فى الحقل العلمى والميدان الوطنى ٠

وقد ألف كتابا في سبعة اجزاء خصصه للنضال عن المسيحية ٠ ومن خلال تآليفه تبدو خصائص الاداب الافريقية ٠ فهو يتحدث مثلا عن الجوائح الزراعية مثل الجفاف والجراد ويضيف اليها جائحة اخرى الا وهم الرومان ٠ كما انه يتحدث عما ينتاب البادية والارياف من مصائب وبؤس فى سنى الجفاف ٠

فهو فخور بالانتساب الى افريقيا ويمجد ماضيها وابطالها ويذكر فى الجزء الثانى صفحة 73 وفى الجزء السابع صفحة 50 بان حنبعل القرطاجنى ادخل الرعب فى قلوب الرومان الذين ارتعدت فرائصهم من صولته ٠ وكان الكاتب شديدا فى حكمه على اعداء قرطاجنة، فنراه فى الصفحة الرابعة من الجزء الرابع يزدرى برومة

ويحتقرهـا عندما يتحـدث عن انكساراتهـا فى واقعتى كـانـا وتـرنزيمان وهـو اذ يـذكر الاستيـلاء الرومانى يتحدث عنـه كاجنبى ويعده من الجوائح ويختم مرافعته بتصريحه التالى :

« ان رومة خلقت لاتلاف الجنس البشرى » (49) ٠

كان ارنوبوس وثنيا ثم اعتنق الـديانة المسيحية ٠ وقـد كتب للدفـاع عن دينه الجـديد سبعة كتب فى مجلد واحد اسماه: اعـداء القومية (Adversers Nationes) ٠ وكان هذا التاليف موجها ضد الوثنية الرومانية فى ظاهره ، و ضد الاحتلال الرومانى فى باطنه اذ كان مفعما بالوطنيات ومشبعا بما يكنه من بغض وكراهية نحو الدخيل العـادى ٠

بعد ان اعتنق ارنوبوس الديانة المسيحية نراه يتحدث فى احد كتبه السبعة عن عبادة الاوثان فيقول :

« كنت قبلا اعبد ـ يا للغى ـ كنت اعبد الاوثان المصنوعة من الحديد ، كنت اعبد آلهة مطروقـة على السندان ، كنت اعبد خـرقا معقودة باغصان شجـرة عتيقة » (50) ٠ الكتاب السابع صفحة 51) ٠

---

(49) Histoire de l'Afrique Chrétienne. PP 242 - 243. par Paul Monceaux - Paris 1903.

(50) ما زلنا نرى فى عصرنا هذا اشجارا معقودة بها خرق مختلفة الالوان وذلك فى غابات شمـال الجمهورية التـونسية ، وهى من مخلفـات الـوثنية البربرية ويسميها الاهـالى هنـاك « ام الشلاليـق » والنساء يعقـدن فيها النيـة .

ومن تلاميذ ارنوبوس حري بنا ان نذكر فيرمينوس لكتتيوس (FIRMINUS LACTATIUS) المولود حوالى سنة 250 بقرطة (قسنطينة) وكان بليغا فصيحا عم ذكره البلاد وتجاوز حدودها ، فدعى الى مدينة نيكوميديا وقد اصبحت العاصمة الجديدة للامبراطورية (وتسمى اليوم ازميت او خوفه على وهى واقعة على ضفاف بحر مرمرة بتركيا) ، دعى ليعلم الفصاحة والبلاغة . فاوكل اليه تربية القيصر كريسيوس ابن القيصر كنستنتان . وكان ارتحل فى ذلك العهد الى نيكوميديا كثير من رجال العلم الافارقة من بينهم النحوى فلابيوس الذى انيط بعهدته تدريس النحو اللاطينى .

كان لكتنسيوس يعالج المسائل النحوية والعروض والجغرافيا والفلسفة ، وقد الف فى الفلسفة الدينية موسوعة فى سبعة اجزاء أسماها المؤسسات الالهية (Divines Institutions) كما انه وضع كتابا شاملا لتاريخ افريقية وجغرافيتها سماه « بافريقية » ، ودون رحلته شعرا ودعاها « من افريقيا الى نيكوميديا » .

ومن بين العلماء الافارقة الذين نالوا شهرة فائقة البليغ ماريوس فكتورينوس (Marius Victorinus) المولود حوالى سنة 300. فكان بليغا ونحويا وفيلسوفا وشاعرا انتصب للتدريس فى اول امره ، ثم ارتحل الى ايطاليا مثل ابناء جلدته فى ذلك العصر ، فاسس بروما مدرسة للبلاغة وقد احرز على درجة عالية من العلم مما حدا بالامبراطور ان امر بان يقام له تمثال فى ميدان تراجان بروما سنة 353 .

كان في اول امره من اشد اعداء المسيحية ، ثم اعتنقها دينا واصبح من المناضلين عنها (51) ٠

من الكتاب العلماء الخليقين بالـذكر مكـروبوس (Macrobus) المولود ببونه (عنابه) والذى عـاش مـا بين القرن الرابع والقرن الخامس ٠ فقد الف كتابا اسماه (SATURMALES) وهو كتاب لخص فيـه جميع العلـوم ٠ كمـا الف كتابا آخر شرح فيه كتاب «احلام شيبيون» الذى كان صنفه الكاتب الرومانى شيشرون ـ وهو ايضا من الذين ارتحلـوا الى ايطاليـا وانتصبوا للتدريس بجامعة رومة. قلد هذا الكاتب الافريقى ولاية اسبانيا فغاله ثم سمى بروقنصل بقـرطاجنة ٠

ومن الذين برزوا ايضا فى ذلك العصر كابيلا مـرتيانوس (CAPELLA MARTIANUS) المولود فى اواخـر القـرن الرابـع بقـرية مداوروش، فالف موسوعة الفنون السبعة الحرة (Les sept arts libéraux)

ولكن اعظـم علماء هـذا العصر واوسعهم علمـا واصدقهم لهجة، هو القديس اغستيانوس البـونى (Saint Augustin) ولـد هـذا القديس بقـرية ثاقست (Thagast) قرب مدينة عنابة بالجزائر سنة 354 من اب وثنى يدعى باتريقيوس (PATRICIUS) ومن ام مسيحيـة تسمى مونيكـا (Sainte Monique) ٠ فتلقى تعلمه الابتدائى بمسقط راسه ، ثم ارتحل الى بلدة مداوروش لمزاولة تعلمه الثانـوى ٠ وعند ما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بجامعـة قـرطاجنة حيث اتم تعلمه العالى ٠ فاسس بالعاصمة الافريقية مدرسة لتعليم البلاغة ولما يتجاوز العشرين من سنيـه ، فالتف حـوله شبـان

---

(51) Saint Augustin — Les Confessions — Livre VIII. P. 2

كثيرون قد يقاربونه فى السن . ولم يلبث ان ذاع صيته بين رجال العلم والفلسفة ، الا انه بقى وثنيا استهوته المانوية والفلسفة الافلاطونية الحديثة .

لم ير اغسطس بدا من الرحيل الى رومة لنشر بضاعته طلبا للرزق ، كما كان يفعل ابناء جلدته . ففتح مدرسة بلاغة ، لكنه لم يلبث ان تخلى عنها لان طلبة رومة لا يوفون بالتزاماتهم المالية نحو اساتذتهم ، فاضطر اغسطيانوس الى التماس خطة تدريس من الحكومة الرومانية التى سمته استاذا بمدينة ميلانو سنة 384 ، الا انه مج التعليم وزهد فى الدنيا حيث انه اقبل اقبالا كليا على العقيدة الكاثوليكية تحت تاثير امه التى كانت على غاية من التدين ، فاصبح من ذلك العهد من اكبر المناضلين عن العقيدة الكاثوليكية ضد الزندقة المانوية والتوحيدية الآرية التى كانت تنكر تأليه المسيح ، وخصوصا ضد الدوناتية الافريقية : وهو مذهب خارجى انفصالى ابتكره الافارقة لمقاومة الكاثوليكية التى اصبحت مذهب الجماهير الرومانية . ولم يجد لنضاله ميدانا افسح من بلدته ثاقست فرجع اليها .

الف القديس اغسطيانوس مؤلفات عديدة اهمها كتاب « الاعترافات » وقد وضع هذا التصنيف للتكفير عن ذنوبه ، وكتاب « مدينة الله » الذى صنفه للرد على الرومان الذين فقدوا الثقة فى الديانة المسيحية عند ما احتل القوطيون مدينة رومة واستباحوها نهبا وحرقا ، ذلك ان الرومان ظنوا ان سبب هذه الكارثة العظمى هو غضب الآلهة القدامى الذين انتقموا لانفسهم من رومة لانها اعرضت عن عبادتهم واقبلت على الديانة المسيحية.

فاكتسحت البلاد موجة من الـردة ، فوضع القديس اغسطيانوس كتاب « مدينة الله » للـرد على اهـل الـردة محاولا ارجاعهم الى اليقين • عـلى ان القديس الف كتبـا عديدة ورسائل كثيرة فى الجدل وفى الالهيات وفى الفلسفة الدينية للذود عن حياض المذهب الكاثوليكى •

توفى القديس اغسطيانوس بمدينة بـونه (عنابة) سنة 430 م وكان وقتذاك اسقفها وهى ترزح تحت الحصار الشديد الذى ضربه عليها الوندال (52) •

ذكرنا آنفا كلمة الدوناتية وقلنا انها مذهب خارجى انفصالى افريقى ابتدعه الافارقة لمقاومة الكاثوليكية التى اصبحت مـذهب اغلبية الرومان المستعمرين •

نعـم ان الشعوبية الافـريقيـة هـى التى وضعت هـذا المذهب ، وهو ضرب من المقاومة الـوطنية المستترة تحت شعـار الاصلاح الدينى • ونفس هذه الـروح المـذهبية السياسية هى التى تقمصها فيما بعد الخوارج الافارقة المسلمون للغرض نفسه •

واضع هذا المذهب الانفصالى سـر (DONATUS MAJUS) دوناتوس الاكبر المـولود سنة 270 بقرية «البيوت السود» (CASAE NIGRAE) ولعلهـا قرية نيقرين الواقعة بالجنـوب الجـزائرى على الحـدود التونسية قرب قرية تامغزة •

---

(52) Voir : Saint Augustin par Cresson André. Presse Uuiversitaires de France-Paris 1957

كان دوناتوس الاكبر شاعرا واديبا وعالما دينيا • ولى خطة مطران بقرطاجنة ثم انشق عن الكنيسة الكاثوليكية لانـه كان يشاهد ان الرومان المتنصرين ما انفكوا يسومون سوء العـذاب البرابرة سواء النصارى منهم او الوثنيون • فـراى ان يمرق عن الكاثوليكية احتجاجـا على سوء سلوك اهل الكنيسة ودفاعا عن ابناء جلدته ، فابتكر هذا المذهب الجـديد لجمـع شتات الافـارقة وتـوحيد كلمتهم وتاليبهم ضد الكنيسة المخالفة لتعاليم الدين • هذا فى الظاهر ، واما باطنيا فقد كـان دونـاتوس يضمر الحقـد والبغض للرومان • فما زال مذهبـه ينتشـر حتى عـم جميـع الطبقات المستضعفة فاخذ اشياع دوناتوس يؤلفـون الجماعـات الغفيرة ويطوفون بالاريـاف والقـرى والضياع التى كانت عـلى ملك الرومانيين يلحقـون بهـا الخـراب والدمار ، فلذلك كانوا يدعون الطوافين (Les Circoncellions) •

وقـد ألف دوناتوس كتبا عديدة اشهرها «رسالة العمادة» (Epistol de Baptismo) وكتاب « الروح المقدسة » (SPIRITUS SANCTO)

ومن انصار دوناتوس الذيـن بـرزوا فى الحقـل العلمـى والمذهبى فيتيليوس الافـريقى (VITELLIUS Afer) الـذى أسس مدرسة دوناتية بـرومة حيث انتشر المذهب انتشارا لـم يكن متوقعا • ويجدر بان نذكر ايضا مكـروبـوس الافـريقـى (MACROBUS Afer) وكلـوديانـوس (CLAUDIANUS) اللـذين شاركـا مشاركة فعالة فى نشر المذهب الـدوناتى بافـريقيا وايطاليـا وتعاقبا على خطة المطرانية برومة نفسها ، وغير هؤلاء كثيرون •

وقد تولد ادب غزير عن هذا المذهب اتسم بسمة الشدة والصرامة والجرأة والشجاعة فى التفكير وفى القول ٠

قبل ان نختم هذا البـاب خليق بنا ان نقول كلمة عن ادب الاستشهاد :

ان الحكومة الرومانية الوثنية كانت شديدة على المتنصرين بصفة عامة ، وكانت لا تتورع فى تعذيبهم بجميع الوان العذاب وفى تقتيلهم اشنع القتـل ٠ فكانت تنفيهم وتسجنهم وتجـردهم من املاكهم وتحرقهم احياء وتصلبهم وتقـدمهم فـريسة للحيوانـات الضارية فى الملاعب العمومية ٠ فتولـد عن هذه المعاملة القاسية النكـراء ادب سمـوه ادب الاستشهـاد بـرزفيه الكثيـر من الادباء الافارقة الذين خلدوا شعرا حـزينا وأدبـا باكيـا جديـرا بالعناية والدرس ٠ ونحن نحيل القارىء عـلى كتـاب « عبقـرية المسيحية » للكـاتب الفـرنسى (CHATEAUBRIAND) وكتـاب ادب الاستشهاد (La littérature Martyrisante) للكاتب الفرنسى الآنف الذكر (Paul Monceaux)

طبقـة عصـر الانحطـاط

———«o»———

فى سنة 430 احتل البلاد التـونسيـة جمـوع الـونـدال المتوحشة فاسلموا البلاد الى الحديـد والنار ، واستباحوا القرى والمـدن والارياف نهبا وتخريبا ، فعمت الفوضى ، وانتشر البؤس

وانحطت القيم الانسانية ، وعفا رسم الثقافة من البلاد ، وساد الجهل • فكان الاستيلاء الوندالي وبالا على البلاد والعباد •

وبالرغم من تلك المصائب والمحن بقي بعض الافارقة متمسكين بعرى الثقافة فظهر من بينهم على العهد الوندالي الطبيبان كسيوس فيليكس وكاليوس اوريلوس والعالم بوبيوس المريطاني والنحوي فلجنسوس والمؤرخ فيكتوروس دي فيتا والشاعران لكسوريوس ودراكنتيوس •

ولما احتل البزنطيونيون البلاد اثناء القرن السادس لم يعنوا كثيرا بالثقافة والعلم اذ كان عصرهم عصر حروب ومقاومة وثورات ، فلم ينبغ فى ذلك العهد الا القليل من الافارقة • فلقد خلد لنا التاريخ اسماء بعض الاعلام مثل الكاتب بريسيان الشرشالي وجويلنوس الذى ترك تفسيرا للكتاب المقدس وفيكتوروس التونسي المؤرخ وكربيوس الشاعر •

تلك هى نبذة خاطفة وعجالة موجزة فى التربية والثقافة بافريقية خلال العصور التى سبقت الاسلام •

واليكم ما يقوله الكاتب الفرنسي بول منصو فى خاتمة كتبه السبعة التى خصصها للبحث فى الآداب الافريقية خلال العصور القديمة والتى كرس من اجلها اجل حياته :

« حقيقة لم يوجد فى اى قطر من اقطار الامبراطورية الرومانية آداب اخصب مادة ولا ابدع اسلوبا ولا أحكم تطورا

منطقيا من الاداب التى ازدهرت بافريقية • ففى ميدان التفكير والاسلوب اضفت الآداب الافـريقية صبغتهـا على كامـل اروبـا الغـربية وبفضل الكاتبين ابوليوس وفـرنتوس فـرضت ذوقهـا احقابا على وثنيى رومة ، وبفضل طـرطـوليانـوس والقـديس اغسطيانوس سحبت وراءهـا اغلب المؤلفين النصارى الرومان ».

الباب الثانى

التربية بافريقية الاسلامية
لمحة تاريخية

لما جاء نصر الله والفتح وغمر سنا الاسلام الوهاج ربوع الشرق العربى ، انبثق منه شاع لألاء بعث النور متألقا فى ارجاء افريقية التى كانت فى قبضة الروم البيزنطينيين أثناء القرن السابع المسيحى .

تقدمت طلائع الجيش العربى الى افريقية فى زحفنهم الاولى على عهد الخليفة عثمان بن عفان سنة 27 هـ (647 م) ثم توالت الهجومات العربية عليها طيلة خمسين عاما لشدة ما اتصفت به المقاومة البربرية من العنف والصلابة .

فلم ير القائد العربى عقبة بن نافع بدا من نصب «قيروانه» فى قلب افريقية سنة 50 هـ (670م) ومن هذا المعسكر المركزى كانت الغارات والغزوات الحربية تشن على اوكار المقاومة البربرية والمعاقل البيزنطية .

وما فتئت القيروان حتى اصبحت كرسى الامارة العربية

ومركز القيادة . فاوى اليها المجاهـدون المسلمـون بعيـالهـم وذراريهم .

فلما تم الفتح اذعن البرابرة للفاتحين ، ودخلوا ديـن الله افواجا ، واقبلوا على تعلم العربية فظلت القيروان عاصمة سياسية وروحية ودار علم وثقافة يؤمها الطلاب من اقاصي البلاد وادانيها.

وفى سنـة 185 هـ (800 م) اسس الوالى العربى ابراهيم بن الاغلب التميمي الدولة الاغلبية بمدينـة القيروان ، فازدهـرت العلوم وعمت المعرفة وانتشرت اللغة العربية على عهد هذه الدولة الفتية التى نبغ فى مدتها اعلام كثيـرون .

ولمـا انقـرضت الدولة الاغلبية سنة 295 هـ (909 م) خلفتها الدولة الفاطمية (العبيدية) التى شجعت العلوم والمعارف بالرغم من الفتن المـذهبية التى كانت تعكـر صفوها .

الا ان افريقية لـم تبلغ اوجها من الحضارة والعلوم والادب وضروب المعرفة الا على عهد الدولة الصنهاجية البربرية (الزيرية) التى استخلفها الفاطميون بافـريقية عند رحيلهم الى مصـر سنـة 362 هـ (973 م) .

ولم تنقرض الدولة الصنهاجية الا بعـد ان عـانت انـواع الويلات من جراء استيلاء النرمان على السواحـل التونسية وعيث اعراب بنى هلال ومن لف لفهم داخل البلاد . فتم زوالها على يـد الموحدين المغاربة سنة 556 هـ 1160 م) .

فعند هذا التاريـخ ننهى بحثنا هذا والله ولى التوفيق .

الفصل الاول

الفتح العربى فتح ثقافى

لقد اختلفت على افريقية ـ على ممر العصور ـ امم عديدة وحضارات متنوعة ، فتركت فيها آثارا كثيرة . الا ان هذه الآثار كانت مادية فى اغلب الاحيان ، ذلك ان تلك الامم المتعاقبة على البلاد لم تحل بها من اجل غرس عقيدة دينية او نشر ثقافة ، بل ان البعض منها تأثر الى حد بعيد بالعقيدة السائدة فى هذه الديار .

فالفنيقيون كان همهم منحصرا فى الاتجار والاثراء ، فلم يأتوا قط من اجل فرض ديانة او بث عقيدة ، او نشر ثقافة ، وكذلك الرومان الذين كانوا يبغون الحلول محل قرطاجنة واكتساح الاراضى واستعباد الرقاب، فقد اقتبسوا اصول عقيدتهم الوثنية عن اليونان وعن الفينيقيين ، ولم يهتموا بفرضها على الامم المغلوبة على امرها . واما الوندال فكانوا وثنيين عندما اكتسحوا الامبراطورية الرومانية ، وقد اعتنقوا الديانة المسيحية بعد احتلالهم البلاد الافريقية . وعلى الرغم من ان البزنطينيين كانوا مسيحيي المعتقد فلم يصطبغ استيلاؤهم على البلاد بالصبغة الدينية ، وذلك لان الديانة المسيحية كانت متغلغلة فى هذه الربوع ابان الاستيلاء البزنطى .

واما الفتح العربى فكان فتحا دينيا ثقافيا ، اذ انه جاء

لنشر تعـاليم الدين الاسلامى المتمثلـة فى القـرآن الكـريم • « فالقرآن قـوام دين ، ودستور سياسة ، وبحر اخلاق ، وقاموس لغة ، وديوان ثقافة » • فلادراك معـانى هذا الكتاب واحكامه فى كلياتها وجزئياتها وجبت اللغة العربية ووجب اتقان قواعدها على ابناء الامم التى شملها الفتح ، بل وعـلى ابنـاء العرب انفسهـم • فبموجب ذلك عنى العرب الفاتحون بالتعليم منذ بداية الفتح لعلمهم بان العقيدة لاترسخ فى القلوب ولا تتغلغـل فى الاذهان بمجـرد التلقين الشفوى • فلذلك كان الفتح العربى لا فتحا دينيا فحسب بل كان ايضا فتحا ثقافيا عميق الاثر خالد المفعول •

والذى سهل عـلى العربية انتشارهـا ورسوخها بين امصار البربر وقبائلهم هى الاسباب والدواعى التالية :

اولا ـ ما يوجد بين اللغـة العربية واللغة البربرية من اوجه الشبه حيث ان اللغتين مشتقتان من اصل واحد هى اللغة السامية ، من ذلك ان جميع الحروف الهجائية العربية توجد فى اللغة البربرية مـا عدا الضاد والظاء ، واما التاء التي هى علامة التأنيث عند العرب فهى تـؤدى هذا المعنى ايضا فى اللغة البربرية الخ •••

ثانيا ـ ان اللغة الفنيقية شقيقتهما السامية الثالثة كانت منتشرة فى البلاد الافريقية زمن الفتح العربى كما حققه لنا المؤرخ اليونانى بـروكوب (PROCOPE) المتـوفى سنـة 562 والذى اقـام بافريقية خـلال القرن السادس المسيحى يوم كان الكاتب الخـاص للقائد البزنطى بليسار • فذكر المؤرخ بروكوب فى كتابـه الذى صنفه عن « حـروب يستنيانوس (Les Gueres de Justianien - P. 273)

بان « سكان افريقية يتكلمون عدة لغات منها اللاتينية والبونيقية والبربرية التى كانت تتعدد لهجاتها بتعدد القبائل ٠٠٠»

ثالثا ـ ان اللغة العربية كانت لغة الدين وبها نزل القرآن ، ولا سبيل الى تفهم العقيدة وادراك معالم الدين الا بتعليم لغة الضاد٠

رابعا ـ كانت اللغة العربية لغة السياسة ، فالحكومة والسلطات الجهوية اتخذت لها العربية لغة رسمية منذ بداية الفتح ٠

خامسا ـ لقد اجتهد الخلفاء والولاة فى نشر الثقافة العربية بصفة رسمية ، فعلى رأس المائة الثانية ارسل الخليفة الاموى عمر ابن عبد العزيز الى افريقية عشرة فقهاء لتعليم ابناء البربر مبادىء الدين ٠ واليك اسماء هؤلاء الفقهاء العشرة :

1) ابو عبد الرحمان الحبلى المتوفى بالقيروان سنة 101 هـ
2) ابو مسعود بن مسعود التجيبى
3) اسماعيل بن عبيد الانصارى
4) ابو المهاجر عبد الرحمان بن رافع التنوخى
5) موهب بن حى المعافرى
6) حيان بن ابى جبلة القرشى المتوفى سنة 125 هـ
7) ابو ثعامة بكر بن سواد الجوامى
8) ابو سعيد جعثل بن هامان البتور

9) ابو عبد الحميد اسماعيل بن عبد الله (وقد استعمله عمر ابن عبد العزيز على القيروان وتوفى بها سنة 132 هـ)

10) طلق بن حـابان (خابان فى طبقات ابى العـرب ص 20 وفى معالم الايمان ج 1 ص 162)

وقـد وردت اسماء هؤلاء التـابعين بطبقـات ابى العـرب التميمى صفحة 20 « وبرياض النفوس » للمالكى مـا بـين صفحـة 64 وصفحة 76 وفى الجزء الاول من معالم الايمان ابتداء من صفحة 150 ، كما ذكـر البعض منهم « البيان المغرب» (لابن عذارى ج 1 صفحة 27)

سادسا ـ كان ولاة القيروان ينزعون احيانـا الى الاستقلال السياسى لشعورهم بالبعد عن مـركز الخـلافة ، ولربما كانـوا يحاولون تأسيس دولة ترتبط اسميـا بالخلافـة • فهكذا حـاول الامراء الفهريون ومن بعدهم الامراء المهالبة تأسيس دولة بالقيروان من دون ان يقطعوا حبل الـوصل بينهم وبين دار الخلافة • ولتدعيم سلطانهم سهروا عـلى تشجيع التعليـم وتـوسيع نطاقـه قصد الاستقـلال العلمي عن الشرق ولتخريج اطارات الموظفين الصالحين للدواوين الحكومية • فاقبلوا على تأسيس معاهد العلم وجلب علماء مشهورين من الشرق •

وهؤلاء العلماء امثال :

ربيعة بن ثابت الرقى الشاعـر

والمسهر التميمى الشاعر

ومحمد بن عبد الله الملقب بابن المولى الشاعر

ويونس بن حميم النحوى

وقتيبة الجعدى الكوفى النحوى

وغياض بن عوانه الاديب اللغوى

وابن الطرماح الاديب اللغوى

سابعا ـ الشعوبية البربرية :

لقد اسلم البربر عن طواعية او صاغرين ، لكن بقيت فى نفوسهم نزعة تواقة الى التخلص من الهيمنة العربية • فلم يجدوا ـ لادراك غايتهم ـ سلاحا امضى وانجع من السلاح الذى استعمله العرب انفسهم الا وهو سلاح الدين • فتمسكوا بمذاهب الخوارج من صفرية واباضية ووهابية لعلمهم بان الخوارج ما انفكوا مناهضين للحكومة المركزية السنية • وقد نبغ من بين هؤلاء الخوارج الافريقيين شعراء وفقهاء وادباء كثيرون وانتشأوا مساجد وجوامع بمدينة القيروان وبغيرها من الامصار الافريقية لاقامة الصلوات ولنشر الدعوة الخارجية وتعليم اصول المذهب • وقد اشتدت عصبية الخوارج السياسية حتى طغت على البلاد الافريقية فافتك الخوارج مدينة القيروان من ايدى الولاة العرب وحاولوا تأسيس دولة بها « فكانت القيروان فى منتصف القرن الثانى للهجرة مرجلا يغلو بالدراسات والمناقشات المذهبية وصارت حلقاتها نوادى تفكير اسلامى ومسارح ملل ونحل وفلسفات» (مراكز الثقافة بالمغرب صفحة 16)

واول من ادخل المذهب الخارجي الى افريقية هو عكرمة المحدث « وكان مجلس عكرمة في مؤخر نتشرت نحلتهم وآراؤهم في الموضع الذى يسمي بالركينة » (طبقات ابى العرب ص 19) • وكان عكرمة يرى رأى الخوارج وعنه امسجد الجامع فى غرب المنارة فى القيروان وفى بقية انحاء المغرب ومات عكرمة سنة 105 هـ •

ومن اشهر علماء الخوارج افريقيين الدرجيين النفطى وابو زكرياء (راجع كتاب السير للشماخى) •

حقا ان الادب الذى خلده لنا ادباء الخوارج ومفكروهم وفقهاؤهم وعلماؤهم لجدير بالعناية والبحث والدرس • فهو جزء لا يتجزأ من تراثنا الثقافى والعلمى • فمن واجب الشباب المثقف ان يعنى بهذا الادب الغابر الصادر من اعماق نفوس اولئك الخوارج المضطهدين • فهو ادب باك ادب منتحب شبيه بادب الاستشهاد الذى ظهر ببلادنا زمن انتشار المسيحية • فهل من شباب يهب الى دراسة هذا الادب؟

ثامنا ـ ظهور المساجد العامة والخاصة والكتاتيب وتكاثرها وقد اسسها اربابها على معنى المدارس يلقون فيها دروسهم على الحلقات احتسابا لوجه الله تعالى ، والى هذه المدارس يرجع الفضل فى نشر الثقافة العربية والاسلام فى عموم الطبقات الشعبية وفى الجبال والسهول •

ومن اشهر هذه المساجد بالقيروان جامع عقبة ومسجد محمد ابن خيرون (جامع الابواب الثلاثة) ومسجد ابى ميسرة وجامع الزيتونة بتونس وغيرها كثير لا يكاد يحصى •

تاسعا ـ ما انفك العـرب يفدون على بلاد المغرب حتى منتصف القـرن الثانى من الهجرة لتأييد سلطانهم • وكانوا عند وصولهم القيروان يوزعهم الوالى على المراكز العسكرية داخل البلاد مثل تونس وباجة وقسنطينة ، او فى المراكز الحربية الواقعة على الحدود مثـل طبنة وباغاى وتيفاش وبسكرة• فكانوا يجتمعون فى وقت السلم ببنى جلدتهم وبالمولدين من ابناء مسلمى البربر يسامرونهم باخبار الجاهلية والاسلام مما لقنوه فى الشرق ، ورووا لهم ما يحفظونه من الاشعار فى ايام العرب ووقائعهم المـروية • وهؤلاء الجنـود الادبـاء امثال سليمان بن حميدة الغافقى المتوفى بتوزر سنة 160 هـ، والمعمر بن سنان التميمى المتوفى سنة 177 هـ. (I)

عاشرا ـ انتشار الرباطيات على كامل السواحل الافريقية ، وسوف يأتى الحديث عنها•

حاديا عشر ـ الرحلات الى الخارج فى سبيل طلب العلم •

ثانيا عشر ـ المكتبات العامة والخاصة وسوف نخصها ببحث•

(I) يقول الرقيق القيروانى : « وامر (موسى بن نصير) العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد (بطنجة) ان يعلموا البربر القرآن وان يفقهوهم فى الدين » (كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق صفحة 70 ـ مطبعة الوسط ـ تـونس 1968 ـ تحقيق المنجى الكعبى والبيان المغرب لابن عذارى الجزء الاول صفحة 42)

الفصل الثانى

اغراض التربية عند المسلمين

لم يكن لأمة من الامم ان تجعل للتربية هدفا معينا لذاته وانما التربية عند جميع الشعوب والاقوام البدائية منها والمتحضرة كانت دائما خاضعة لتقاليد الامة وعاداتها ومستلزماتها . وبعبارة اخص كانت التربية ترمى الى ادماج الفرد فى بيئته الاجتماعية ليصبح قادرا على الاضطلاع بما يوجبه عليه مجتمعه . فالمجتمع هو الذى يطبع التربية بطابعه ويشكلها بالشكل الذى يلائم مصلحة الجماعة . فتأثير البيئة فى الفرد اقوى وابلغ من تأثير الفرد فى البيئة الا فى صور نادرة قليلة .

كان المجتمع الاسلامى ـ فى قرونه الاولى على الاخص ـ متأثرا الى حد بعيد بطابع الدين ـ فكان الدين يسيطر على جميع مناحى الحياة الروحية والفكرية والعلمية اذ كان هو الرائد والدليل للمسلمين ينير لهم السبيل القويم دنيا وآخرة ويتحكم فى تفكيرهم وسلوكهم .

اجـل ان الدين الاسلامى امتاز بكونه صالحا لكل زمان ومكان، وبكونه بعث للانسانية قاطبة لما احتواه من احكام جـاءت تسوس حيـاة البشر لا من حيث المعتقـد فحسب بـل ايضا من حيث جميع مناحى الحياة : الخلقية والاجتماعية والمـدنية والسياسيـة • فهذه المـرونة التى اتسم بهـا ديننا الحنيف صيرتـه دستـور الامـة الاسلامية الاوحد •

فالدين وازع خلقى من الرتبة الاولى اتى بالامـر بالمعروف والنهى عن المنكر : (كنتم خيـر أمـة اخـرجت للنـاس تأمـرون بالمعروف وتنهون عن المنكـر) « سورة آل عمران »

كما ان الدين جاء ضابطا للاحكام التى تربط المخلوق بخالقه مثلما يتجلى ذلك فى احكام العبادات : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدونى » (سورة النجم) •

ومن ناحية اخرى جـاء الدين قـانونا مـدنيا لما تضمنه من الاحكـام المـدنية (المعاملات والانكحة) والقوانين الزجرية (الدماء والحدود) التى سنها لتنظيم الروابط التى تربط بين البشر (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمـوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ـ (سورة النساء) •

واخيرا جـاء الدين الاسلامى بدستور للدولة الاسلامية لما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من الاحكام السياسية (يا ايها الذين آمنوا أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم ـ (سورة النساء) •

فالـدين والسياسة عند المسلمين شيئان متلازمان تلازمـا مطلقا • ان هذه الميزة التى تميز بها الدين الاسلامى وامتاز بهـا وحده جعلته يحتل المكانة الاولى فى الحيـاة الاجتماعية والسياسيـة بالبلاد العـربية والتى شملهـا الفتح •

فعـلى هذا الاعتبار كانت التربية عند المسلمين مصطبغة الى حد بعيد بصبغة الـدين ، فكان الغـرض الاول الذى تهـدف اليه التربية عندهم هو تفقيه الناشئة فى امور الدين علما وعملا وذلك بتحفيظهم القرآن (قال رسول الله صلعم : ان افضلكم من تعلم القرآن وعلمه ـ رواه البخارى) وتلقينهم اصول الدين من صلاة وصـوم الى غير ذلك من العبادات (من يرد الله بـه خيرا يفقهه فى الـدين ـ حديث شريف)

على ان المسلمين لم يقفـوا عند تحفيظ القرآن وتعليم مبادىء الدين ، بل تفطنوا منذ العصور الاسلامية الاولى الى ان حفظ كتاب الله ومعرفة اصول الدين وتسيير شؤون الـدولة لا يتم على الوجـه الكامل الا بدرس علوم اخرى لا تكتسب بالتلقين ، وانما تحصـل بالدرس والتعليم المنظم • فلم يروا بدا من تعميم القراءة والكتابة واللغة العربية وقواعدها وآدابها والحساب ، لا على انها غاية فى حد ذاتهـا ، وانما كأداة ضرورية للوصـول الى ادراك معـالم الـدين والدنيا •

ثم تطور التفكير العـربى فيما بعد فصار الكثير من المفكرين والعلماء العـرب يدرسون العلم من اجل العلم باحثين عن الحقيقة بتجرد مطلق غير متقيدين ، خصوصا عند احتكاكهم بالامم المجاورة

لهم من روم وفرس وهنود واطلاعهم علـى مـؤلفاتهم وتصـانيفهم وآرائهم ٠

ومما زاد المسلمين تعلقا بالعلم والتعليم مـا ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة والاثر المبارك من نصوص تحض على التعليم وترفع مقام العلم والعلماء وتهدى الى تربية المتعلمين وتأديبهم ٠
فلقد قال جل من قائل :

« قل هـل يستوى الذين يعلمـون والـذين لا يعلمـون » (سورة الزمر)

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (سورة فاطر)

« يرفـع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » (سورة المجادلة)

وقد جـاءت كتب السنة المطهرة تعـج بالاحاديث النبـوية التى تحض على طلب العلم واكتساب المعرفة ، من ذلك مـا ورد فى صحيح البخارى :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم (ومسلمة) »
« من سلك طريقـا يطلب فيه علما سلك به طريقا فى الجنة »

« تعلموا العلم وعلموه الناس وتعلموا الوقـار والسكينـة وتواضعوا لمن تعلمتم عنهم العلم وتواضعوا لمن علمتموه العلم ولا تكونوا جبابرة العلماء » ٠

كما اثرت آثار جليلة واحاديث كثيرة تدل بوضوح على عناية السلف الصالح بالعلم والتعليم سواء منهم الخلفاء الراشدون او الصحابة او التابعون او غيرهم من العلماء ·

واليكم ما قاله القاضى اسد ابن الفرات الافريقى عند ما وقف خطيبا على رصيف سوسة يوم ابحاره على رأس الجيش الاغلبى الذى جهز لفتح صقلية :

« لا اله الا الله وحده ، لا شريك له · يامعشر المسلمين · ما ولى لى اب ولا جد ولاية قط ، وما رآى احد من سلفى هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام · فأجهدوا انفسكم وأتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته · فانكم تنالون به الدنيا والآخرة · »

—«O»—

الفصــل الثالث

برامج التعليم فى القرون الخمسة الأولى للهجرة

قد كيف المسلمون برامج التــربية عندهم بحسب بيئتهــم الاسلامية وبحسب الاغراض التى ترمى اليها التربية فى مجتمعهم .

فبما ان اغــراض التربية عندهم كانت خاضعة لسنة التطور الحضرى والفكرى الذى تحدثنا عنه آنفــا ظلت البرامج التعليمية هى الاخرى تابعة حتما لتطور اغراض التربية رفعة وحطة . ذلك اننــا نرى البرامج فى صدر الاسلام أى على عهد الولاة بالقيروان تنقسم الى قسمين كبيرين ، فقسم شمل المــواد الواجب درسهــا كتعليم القرآن والضرورى من علوم الدين ومــا من شأنــه ان يحقق ذلــك كالقراءة والكتابة والعــربية ، وقسم اشتمل على التوسع فى علوم القرآن واصول الدين وبحوث اللغة والحساب الذى هو ضرورى لمعرفة الفــرائض .

فلما تطورت الحياة الاجتماعية وتعقدت المعامــلات وتشعبت مناحى الحضارة اثناء العصر الاغلبى الــزاهــر تطــورت البــرامــج الدراسية ، فلزم التعمق فى شتى العلــوم والغــوص فى البحــوث وازدهــرت سوق الادب ونضج التفكــير العربى وتبحــر العلمــاء

الافارقة فى مختلف العلـوم الرياضية وشتى الفنـون كما سنرى ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد .

وعندما جـاء عصر الانحطاط ـ اثر زحفة اعراب الصعيد ـ تسرب الخراب الى المدائن وتقلص ظل الحضارة وكسدت سوق العلم وانحطت البرامج وتراجع الناس الى برامج ساذجة لا تهتم بتنمية الروح والعقل ولا تعمل على اذكاء روح البحث والجدل ، وانما كانت ترمى الى حشو الادمغة بالقشور والسفاسف ، واصبحت البرامـج عبـارة عن محفوظات ومكررات لفظية لا طائـل كبير من ورائها ، فانقطع السند كما يقول ابن خلدون .

المنـاهـج التعليميـة

انقسمت مناهج البحث والتعليم فى الاسلام بعد ان تطورت العقلية العربية الى قسمين : قسم حافظ على المنهج العربى الخالص ولم يمزجه بشىء من الثقافات غير العربية وآثارها ومحتوياتها وهو منهج اصحاب الحديث فى الحجاز والشام ومصـر والمغـرب ، وقسم اضاف الى المنهج العربى القديم مباحث جديدة استقاهـا من ثقافات الامم المجاورة او المغلوبة على امرها ، وهو منهج اهـل الرأى وهم علماء العراق .

يتميز منهج اهل الحديث بالاعتمـاد عـلى الحـديث النبـوى الشريف يستمد منه احكامه بالاضافـة الى القرآن الكريم « وانما

سموا اصحاب الحديث لان عنايتهم بتحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلى او لخفى ما وجدوا اثـرا او خبرا (الشهرستانى الملـل والنحل : ص 38) ● وهؤلاء هم اهل الحجاز من اصحاب الامام مالك وابن حنبل والشافعى وغيرهم ●

ولمـا استحكـم اختـلاط المسلمين بغيرهم من ذوى الثقافات والحضارات المجـاورة تطـورت العقلية الاسلامية وارتقى التفكير العربى ، فكسر قيود التقليد واقام للعقل وزنا عظيما فى استنباط الاحكام ● فكلما خلت قضية من حكم يبدو صريحا فى القرآن او فى اجماع اهل الملة التجأ العلماء الى تحكيم عقـولهم واتخذوا القياس مطيــة ، فقـاسـوا الاشيـاء وجمعـوا النظائر مـع النظائـر . واهل الرأى هم أهل العراق من اصحاب ابى حنيفة النعمان وابى يوسف يعقوب ● « وانما سموا اصحاب الرأى لان عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها ● وربما يقدمون قياسا جليا على آحـاد الاخبـار » (الملـل والنحـل للشهرستانى ص 38 وص 39) ●

ظل الحجاز طوال القرن الاول العاصمة الروحية للاسلام وقد نبغ فيه كثير من الأيمة والفقهاء والمحدثين والادبـاء وعـلى رأسهم الامام مالك بن انس ●

وقد اتصل اهل المغرب بمالك وشيوخه وتلاميذه من بعـده فى الحجاز ومصر ، فاقبلوا على مذهبه ، واحبوه وتـوخوا طريقته ، واختصوا بها ● وقد علل ابن خلدون ميل المغاربة الى مذهب الامـام

مالك بقوله : « واما مالك فاختص بمذهبه اهـل المغرب والاندلس بما ان رحلتهم كانت غـالبا الى الحجاز (قصد الحـج) وهو منتهى سفرهم ، والمـدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم ، فاقتصروا عـلى الاخـذ من علماء المـدينة وشيوخهم يومئذ ، وامامهم مالك وشيوخه من قبله ، وتلاميذه من بعده، فرجع اليه اهل المغرب وقلدوه دون غيره ممن لـم تصل الينا طريقته » (المقدمة ص 392) ٠

وقد يجوز ان يضاف الى هذا التعليل الذى علل به ابن خلدون اختصاص اهل المغرب بالمذهب المالكى دون غيره تعليل آخر يتمثل فى شدة وجه الشبه الذى نلاحظه فى حياة اهل المغرب واهل الحجاز مـن شظف العيش والـزهـد والتصلب فى الرأى ٠

على انه وجد من بين علماء افريقية من اشاعوا المذهب الحنفى وفكرة الاعتزال فالقاضى المجاهد اسد بن الفرات كان يلقى دروسه بجامع عقبة حسب اقوال اهل الرأى وقـد ألف كتابـا فى مبادىء المذهب الحنفى اسماه « الاسدية » نسبة اليه ٠ ولكن المذهب الحنفى لم يعمر طويلا بالمغرب وذلك لان اهـل افريقية كانـوا يتحاشون المغامرة فى اعمال الرأى خيفة من الوقوع فى الزيغ والانحراف ٠ فعفا رسم مذهب ابى حنيفة من المغرب تماما ٠ وسوف لن يعـود اليه الا مع احتلال الترك للبلاد فى غضون النصف الثانى من القرن السادس عشر مسيحى ٠

ومن ناحية اخرى فان الكثير من القبائل البربرية التواقة الى المحافظة على كيانهـا السياسى والتى لم تـر بدا من الدخـول فى

الاسلام ، تمسكت بالمذهب الخارجي وتعلقت به ، لا لغاية دينية بل لغاية سياسية بحتة ، وذلك لان المذهب الخارجي كان مناهضا للحكومة المركزية ولمن يمثلها بالقيروان . فتسبب انتشار المذهب الخارجي فى فتن وقلاقل دامية كادت تقضى على النفوذ العربى بافريقية القضاء المبرم . وقد اسس الخوارج بالبلاد الافريقية دولة بنى رستم بتاهرت (بالجزائر) وما زالت الى حد اليوم قبائل بربرية كثيرة متمسكة بالمذهب الخارجي من صفرية واباضية (جبل نفوسه بليبيا وجزيرة جربة بتونس وبنو ميزاب (بالجزائر) .

نعم لقد اعتمد المذهب المالكى القرآن الكريم والسنة المطهرة وجعلهما الدعامتين الاصليتين للتشريع ، لكن فقهاء المالكية كانوا يلجأون الى غير هذين الاصلين اذا ما خليا من النص الصريح . فكانوا يعتمدون احيانا عمل اهل المدينة واجماع علماء الملة . واذا ما اعوزتهم كل هذه المراجع حكموا رأيهم اى اجتهدوا . الا ان الكثير من الفقهاء اغلقوا باب الاجتهاد اغلاقا محكما فاصبحوا مقيدين فى تفكيرهم ، مقلدين لمن سبقهم ، الامر الذى حكم على تفكيرهم بالعقم لانهم ارتضوا لانفسهم الوقوف عند رأى اصحاب المذهب وحرموا بعده الاجتهاد . وفى ذلك قال عبد الرحمان ابن خلدون : « ولما صار مذهب كل امام علما مخصوصا عند اهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس ، احتاجوا الى تنظير المسائل فى الالحاق وتفريعها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الأصول المقررة من مذهب امامهم ، وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير او التفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا . هذه الملكة هى علم الفقه لهذا العهد . واهل

المغرب جميعا (الا الخوارج) مقلدون لمالك » (المقدمة صفحة 392) .

والذى زاد التفكير تكبيلا هو عدم التسامح الذى كان يبديه بعض العلماء والأيمة الافارقة تلقاء اصحاب المذاهب غير السنية ، فكان سحنون « اول من فرق حلق اهل البدع من المسجد الجامع وشرد اهل الاهواء منه ، وكانوا فيه حلقا من الخوارج : صفرية واباضية ومعتزلة . وكانوا فيه حلقا يتناظرون ويظهرون زيغهم . فعزلهم سحنون (وقد تولى خطة القضاء بالقيروان سنة 234) ان يكونوا أيمة الناس ومعلمين لصبيانهم ، وامرهم الا يتجمعوا فيه وأدب جماعة منهم بعد ان خالفوا امره » طبقات ابى العرب ص 102 معالم الايمان ج 2 ص 55) .

فكانت البيئة السائدة بالقيروان هى البيئة المالكية التى ظلت تسيطر على العقلية الافريقية فى جميع مناحى التفكير قرونا طويلة . فلئن وجد بافريقية العربية فقهاء اجلاء ونحويون بارعون ولغويون متضلعون وادباء ظرفاء فاننا لا نكاد نلقى من بين ابناء البلاد فيلسوفا ولا متكلما (1) . ففقر افريقية من هذا الصنف من المفكرين متسبب مباشرة عن منهاج الفقهاء المتبع بالمغرب .

وها نحن سنتتبع تطورات التربية فى البلاد الافريقية واحكامها فسنلاحظ ان المربين الافارقة كانوا يستمدون احكامهم ومبادئهم التربوية من القرآن والسنة اولا وبالذات . واذا ما

---

1) اذا ما استثنينا من بينهم بعض العلماء الكلاميين مثل ابى عثمان سعيد ابن الحداد الذى اسس المدرسة الكلامية بالقيروان فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة .

اعوزهم هذان الاصلان التمسوا احكامهم من عمل اهل المدينة او الاجماع . واذا ما خلت كل هذه المراجع من الحكم استندوا الى العرف ما لم يكن منافيا للدين اومخالفا للاخلاق الحميدة . وما كانوا يحكمون رأيهم الا قليلا .

لنتناول بايدينا كتاب « رسالة آداب المعلمين »لمحمد ابن سحنون (تحقيق الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب . مطبعة العرب . تونس سنة 1348 هـ) ، وكتاب « الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » لأبى الحسن القابسي (تحقيق الدكتور احمد فؤاد الاهوانى . دار احياء الكتب العربية . القاهرة 1955 م) .

ان هذين الكتابين اول ما صنف فى فن التربية والتعليم بالبلاد الاسلامية . فرسالة ابن سحنون الفت حوالى منتصف القرن الثالث للهجرة ، وكتاب القابسى الف فى غضون النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

فبمجرد ان تتصفح هذين المصنفين يتبادر الى ذهنك المنهج الذى اتبعه مؤلفاهما . فهما متأثران الى حد بعيد بالبيئة التى كان يعيشان فيها ، ومتبعان لمنهج الفقهاء بصورة تكاد تكون آلية . واليك بعض الشواهد على هذا القول :

1 ـ ينادى كل من ابن سحنون (صفحة 50) والقابسى (ص 282 و 285) بوجوب تعليم القرآن وترتيله بدليل قوله تعالى : « ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا

وعلانية يرجون تجارة لن تبور ... (سورة فاطر) وقوله عز وجل : « يا ايها المزمل قم الليل ... الى قـوله ورتـل القرآن تـرتيلا » (سورة المزمل)

2 ـ واما استناد كل من المؤلفـين الى السنة النبويـة فكثير جدا . من ذلك الحديث التالى الوارد فى العـدل بين الصبيان والذى استشهد به محمد بن سحنون (صفحة 42) قـوله صلعم : « ايمـا مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الامـة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مـع غنيهم وغنيهم مـع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » .

3 ـ وقد يعتمد المـؤلفان احيانا عمل اهل المدينة . ففى بيع المصحف قال ابن سحنون (صفحة 61) ما نصه « ... ان ابن مصيح كان يكتب المصاحف فى ذلك الزمان ويبيعها ـ احسبه قـال فى زمـن عثمان بن عفـان رضى الله تعالى عنه ـ ولا ينكـر عليه احـد ، ولا رأيت احدا بالمـدينة ينكر ذلك . قال : وكلهم لا يـرون بـه بأسا (وقد ورد كلام شبيه بهذا فى الجزء الثالث من مـدونة سحنون ص 396) .

4 ـ وقد يستند ان الى القياس احيانا . ففى لزوم تعليم الآباء لابنائهم يقول ابو الحسن بالصفحة 291 ما نصه : « ان حكم الولد فى الدين حكم والده ما دام طفلا صغيرا . أفيدع ابنـه الصغير لا يعلمـه الدين ، وتعليم القرآن يؤكد لـه معرفـة الدين ؟ الم يسمع قـول الرسول عليه السلام ؟ « كل مولو يولد على الفطرة فابوه يهوداو او ينصرانه ... »

5 ـ ومن المسائل التى اعتمد فيها سحنون الاجتهاد قوله: « وأكره للمعلم ان يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان لان ذلك فساد لهم (ابن سحنون صفحة 56) •

6 ـ وقد اجاز المؤلفان العرف اذا لم يكن قبيحا ، كقول القابسى فى البطالة : « واما تخلية الصبيان يوم الخميس من العصر فهو يجرى ايضا عرف الناس » ص 317) واما اذا كان العرف مستقبحا انكراه ، كما فى صورة عادة تعليم الصبيان فى المساجد ، حيث قال الامام سحنون : « لا ارى ذلك يجوز لانهم لا يحتفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد للتعليم » ابن سحنون ص 55)

وهكذا ترى ان المربين كانوا يعتمدون منهج الفقهاء فى شؤون التربية مثلما كانوا يعتمدونه فى الفقه •

الفصل الرابع

مراكز الثقافة بافريقية

خلال القرون الخمسة الاولى للهجرة

مقدمة :

في غضون القرون الاولى من الفتح العربي كانت مراكز الثقافة بافريقية العربية الكتاتيب والمساجد والرباطات والمكتبات العمومية والخاصة وقصور الملوك والامراء والكبراء ودور العلماء وحتى الدكاكين ، ولربما كانت الاسواق والطرقات العامة محلات للتناظر والتباحث .

ولم تكن المدارس والزوايا معروفة في العصر الذى نؤرخه اى اثناء القرون الخمسة الاولى للهجرة ٠ فاول مدرسة اسست بالمغرب العربي كانت سنة 647 هـ٠ ولم تظهر الزوايا الا بظهور المتصوفة والطرقيين على عهد الدولة الحفصية ٠

واما المسرح والتمثيل فكانا مجهولين فى العالم الاسلامى ٠ وقد تحاشى المسلمون نقل هذا اللـون من الثقافـة عما سبقهم او عاصرهم من الامم لما خالط هذا الفن من التشبيه بالآلهة وانصاف الآلهة ولما احتوته الميثولوجية الوثينة من زيغ وشرك ٠

هذا وسنفرد فصلا خـاصا للتحـدث عن بيت الحكمـة الذى انشأه الاغالبة بالقيروان ونقلوه الى رقاده ثـم نقله العبيديون الى المهدية فالقاهرة ٠

مـــراحـل التعليـم :

كان التعليم فى القـرون الخمسة الاولى بافريقية على مراحل متعددة يمكن حصورها فى اربـع مثلما هى الحال اليوم بوجه عام : وتلك هى على التوالى :

اولا ـ التعليم الابتدائى الذى كان يسدى بالكتاتيب ٠ وكانت الغاية منه تحفيظ القرآن الكريم كـلا او جـزءا مع تعليم مبادىء اللغة والحساب كما سنرى ذلك بشىء من التفصيل فيما بعـد ٠ وكان يقوم بهذا التعليم معلمون من حفظة القرآن ثقـافتهم العامة محدودة الا فى النادر ٠

ثانيا ـ التعليم الثانوى الذى كـان يلقى بالمساجد كبيرهـا وصغيرها لصغار الطلاب الذين انهوا تعلمهم الابتـدائى ، وكـان يشمل فنونا متعددة مثل الحديث النبـوى والفقـه واللغـة والنحو والحساب والادب ٠ وكـان هذا التعليم بسيطا نسبيا يتولاه عادة

شيوخ من درجة وسطى او من يريد افادة صغار الطلاب • والدليل على وجود فرق بين التعليم الثانوى والتعليم العالى هو ان عبد الله ابن ابى زيد القيروانى صاحب الرسالة لاحظ ان كتب الفقه التى صنفها المتقدمون مثل موطأ مالك ومدونة سحنون قد انغلقت على صغار الطلاب واستعصت على ادراكهم فالف لهم : « الرسالة » التى كانت اسهل لفظا واجلى عبارة من مؤلفات الأول • ويقال ان ابن خالته الولى الصالح محرز بن خلف هو الذى اشار عليه بذلك •

ثالثا ـ التعليم العالى او الجامعى ان صح التعبير • وكان يتعاطاه الذين آنسوا من انفسهم المقدرة على فهم الدروس التى كان يلقيها كبار الاساتذة ، وكانوا يشدون اليها الرحال متنقلين من بلد الى آخر فى سبيل طلب العلم. فابن رشيق مثلا اتم تعلمه الثانوى بمسقط رأسه بلدة « المسيلة » بالجزائر • ولما بلغ العشرين من عمره أبى الا ان يواصل تعلمه العالى بالقيروان • وكان هذا التعليم العالى يشمل جميع الفنون بما فى ذلك الطب والصيدلة والنجوم التى كان يتعاطاها فحول العلماء امثال « اسحاق ابن عمران الاسرائيلى الذى اقتبس منه القوم علم الطب والتشريح والصيدلة • كما اخذوا الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة عن محمد بن فرج البناء (بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب. المطبعة التونسية . تونس 1330 هـ 1912 م) •

وكان هذا التعليم الجامعى يفضى عادة الى التخصص • فمن يطالع حياة ابن رشيق او ابن شرف يلاحظ انهما تخصصا فى اللغة

والادب · فشيوخهما الذين كانا يذكرانهم بفخر واعتزاز كانوا من اهل اللغة والادب ، واولئك امثال محمد القـزاز ومحمد النهشـلى وعبد العزيز الخشنى ·

رابعـا ـ الـدراسات والابحاث ـ ظهرت بظهور بيت الحكمة الذى اسسه الاغالبة على غـرار بيت الحكمة الـذى كـان انشـأه العباسيون ببغـداد فى العصر نفسه ·

وهذا التقسيم والتدرج فى التعلم طبيعى اوجبته قواعد علـم النفس التتبعى حسبما اسهب فى بيانـه وتعليلـه ابن خلـدون فى الفصل التاسع والعشرين من الباب السادس من المقدمة (ص 533) . قال ابن خلدون من جملة ما كتبه فى ذلك الفصل المسهب : « اعلم ان تلقين العلـوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا · يلقى (الاستاذ) عليه (عـلى الطـالب) اولا مسائل من كل باب من الفن هى اصول ذلك الباب · ويقرب له شرحها على سبيل الاجمال · ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخـر الفن · وعند ذلك تحصل ملكة فى ذلك العلم ، الا انها جـزئية وضعيفة ، وغايتها انها هيأتها لفهم الفن وتحصيل مسائله · ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة الى اعـلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ، ويذكر له ماهنـاك من الخلاف ووجهـه الى ان ينتهى الى آخر الفن ، فتجود ملكته · ثم وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا الا وضحه وفتحـلـه مقفله فيخلص من الفن وقـد استولى عـلى ملكته · هذا وجـه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل فى ثلاث تكرارات ··· واذا القيت عليـه (عـلى التلميـذ)

الغايات فى البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعـداد له كـل ذهنه عنهـا وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه ، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه . وانما اتى ذلك من سوء التعليم ...»

—«O»—

الفصل الخامس

التعليم الابتدائى

الكتاب

يقول ابن منظور القفصى المتوفى سنة 1311 م فى موسوعته « لسان العرب » ما نصه : « الكتاب موضع تعليم الكتاب (اى الكتابة) والجمع الكتاتيب والمكاتب » (الجزء الثانى من اللسان ص 193) وقد يستعمل احيانا ابن سحنون والقابسى كلمة «مكتب» عوضا عن لفظة كتاب ـ ويبدو ان كلمة كتاب جمع كاتب فاطلق المكان على من يعمل فيه وهو من باب اطلاق المظروف على الظرف .

يمتاز الفتح العربى بانه فتح دينى ثقافى قائم على كتاب مبين وهو القرآن الكريم . فما كان هذا الفتح الا من أجل نشر تعاليم الدين الاسلامى ومعالم الثقافة العربية . فلذلك كان الكتاب يصاحب الفاتحين فى حلهم وفى ترحالهم اذ ان الكثير منهم كانوا يستصحبون معهم نساءهم وابناءهم فى تنقلاتهم . فكان الكتاب خيمة من خيام المعسكر قبل تمصير الامصار .

وبمجرد ما اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان سارع العرب الى بناء الدور والمساجد ثم التفتوا الى تأسيس الكتاتيب

لتعليم ابنائهم كتاب الله والضروري من علوم الدين مع ما يلزم لتحقيق ذلك من قراءة وكتابة .

والقصة التي اوردها ابن ناجي في معالم الايمان لدليل واضح على ان الكتاب انشىء بالقيروان منذ النصف الثاني من القرن الاول الهجري حيث قال :

« حكى غياث بن شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلف ... » (معالم الايمان - (الجزء الاول ص 120) - ولا يخفى ان دخول سفيان بن وهب الى افريقية كان خلال عام ثمانية وسبعين في خلافة عبد الملك بن مروان . فيستفاد من هذا الخبر انه لم يمض ربع قرن على تاسيس القيروان حتى وجد بها كتاتيب .

كان الكتاب - وما زال - عبارة عن حانوت او حجرة مجاورة للجامع او بعيدة عنه او غرفة في منزل - وقد يبني الكتاب خصيصا لتعليم القرآن يبنيه صاحبه احتسابا - ولم يتطور الكتاب في شكل بنائه بالبلاد التونسية الا عند ما حل بهذه الربوع مهاجرو الاندلس الذين اتوا بهندسة خاصة للكتاتيب ، واجمل كتاب اندلسي شاهدناه في هذا العصر هو كتاب بلدة زغوان (تونس) .

وفي البادية التونسية كان الكتاب خيمة من جملة خيام الحي (خيمة المؤدب) وقد ادركنا كثيرا من الكتاتيب في الخيام انقطعت اليوم تماما بفضل تكاثر العمران والبناء ولشدة عناية

حكومة الجمهورية بانشاء المدارس الابتدائية العمومية منذ فجر عهد الاستقلال ٠

وكان المعلم هو الذى يكرى الكتاب مما يتوفر لديه من الاجارة « وعليه كراء الحانوت وليس ذلك على الصبيان » (ابن سحنون ص 51 والقابسى ص 321) ولا يكون الكراء على الاولياء الا اذا استئجر المعلم على صبيان معلومين سنة معلومة ، فعلى اولياء الصبيان كراء موضع المعلم « القابسى ص 322 » ـ وقال محمد بن سالم بن القطان فى كتاب (أجوبة محمد بن سحنون) : « كان سحنون يكرى بيتا يعلم فيه الصبيان » ٠

وكان السلف يتحاشون تعليم الصبيان بالمساجد تحفظا من النجاسة ٠ فقد سئل سحنون عن تعليم الصبيان بالمساجد فقال : « لا ارى ذلك يجوز لانهم لا يحتفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد للتعليم » (ابن سحنون ص 55) ـ وبالرغم من هذا فقد كان كثير من المعلمين ـ وما زالوا ـ يتخذون المسجد كتابا ناهيكم بان كلمة كتاب قليلة الاستعمال ببلاد الجزائر وبالجريد التونسى فهم يستعملون كلمة جامع عوضا عنها ٠

وكان بكل بلدة بل بكل حى كتاتيب عديدة ٠ وقد ذكر ابن حوقل فى كتاب « صورة الارض » (ج 1 ص 126) بانه عد حوالى ثلاثمائة كتاب فى مدينة بلرمو بصقلية ٠ كما ذكر فى صفحة 129 من الكتاب نفسه انه راى كتابا واحدا يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ، والسبب فى تكاثر المعلمين بصقلية راجع الى ان المعلم كان معفى من الجهاد ٠ ففر كثير من الرجال الى هذه

المهنة تفصيا من الجهاد : « ففزع الى التعليم بلههم وحسنه لـديهم جهلهم فرارا من الجهاد وشرفه والغزو وعزه » (كتاب صورة الارض ص 129) ·

لم يكن الكتاب مـؤثثا الا ببعض الحصر المصنوعة من السمار او الحلفاء · ولم يكسب المعلم الا المصحف والدرة والفلقة « وعلى المعلم ان يكسب الدرة والفلقة وليس ذلك عـلى الصبيان » (ابن سحنـون ص 51) · وكان لكـل تلميذ لـوح من خشب مصقـول ودواة وقلم من قصب ومصحف فى بعض الاحيان ـ وكانوا يمحون الواحهم فى اناء يسمى اجانة « يصبـون فيهـا المـاء الطـاهـر بالتناوب » ·

البـــرامـــج

لقد رأينا ان البيئة الاجتماعيـة السائـدة فى العصر الذى نؤرخه كانت بيئة دينية · فكان التعليم يـرمى اولا وبالذات الى تنشئة المسلم الصالح دينـا ودنيا · فلهذا السبب كان برنامج التعليم بالكتاب يعتمد اعتمادا كليا على تعليم مبادىء الدين ·

وعلاوة على ذلك فان البرنامج احتوى ايضا فنونا لا مساس لها بالدين وانما هى صالحة للحياة الدنيا ، وهى ترفع من مستوى الصبى العقلى والعلمى ·

فلذلـك راى الفقهـاء ان يقسم البرنامـج الـدراسى الى مـواد اجبارية يفرض على المعلم تعليمهـا الصبيـان ، والى مـواد

اختيارية يعلمها اياهم اذا ما حصل الاتفـاق عـلى ذلك بينـه وبين الاولياء او تطوعا منه ·

فالبرنامج الاجبارى يشمل تحفيظ القـرآن كـلا او جـزءا ومبادىء علوم الدين علما وعملا ومبادىء النحو والعـربية والقراءة والكتابـة ·

فالقرآن هو كـلام الله ومصدر الحدود الشرعية وضرورى لاقامة الصلاة · وقد اجمع فقهاء الملـة على وجوب ابتـداء التعليم بتحفيظ ما تيسر من كتاب الله · الا اننا نرى بعضهم مثـل ابى بكر بن العربى الاندلسى يقول بارجـاء تعليم القـرآن وابتـداء التعليم بمواد تثقف العقل مثل الشعر والعربية والحساب · فاذا ما تكون الطفل عقليا سهل عليه القرآن حفظا وفهمـا · وقد علق ابن خلـدون على هذا الـرآى واستحسنـه حيث قـال : « وهـو لعمرى مذهب حسن الا ان العوائد لا تساعـد عليه وهى املـك بالاحوال » (المقدمة صفحة 539 ــ 540 طبعة مصطفى محمد. القاهرة).

ان رغبة كل والد هى ان يحفظ ابنه القرآن كله وهو مـا يسمى بالختمة · ولكن مـواهب الطفل او عوائق اخرى قد تحول دون تلـك الامنيـة فيقتصـر الصبى عـلى حفظ نصف القرآن او ثلثه او ما تيسر منه .

ويشترط فى تعليم القرآن حسن الترتيل وجودة القراءة . والقراءة المتبعة فى افريقية هى قراءة الشيخ نافع ·

ويشتمل البرنامج الاجبارى ايضا على تعليم الصلاة التى هى عماد الدين وما يتبعها من وضوء وتشهد وادعية • ويرى الفقهاء انه ينبغى تعليم الصبيان الصلاة ابتداء من السنة السابعة من عمرهم وان يضربوا عليها اذا كانوا بنى عشر كما ورد فى الحديث الشريف •

وبما ان معرفة القرآن معرفة صحيحة تستلزم الاعراب وجب ايضا على معلم الكتاب ان يعلم تلاميذه المبادىء الاولية من النحو والعربية •

وحفظ القرآن لا يسهل الا بتعلم القراءة والكتابة اللتين جاء القرآن حاثا على تعلمهما فى اول سورة نزلت على النبىء : « اقرأ بسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم •»

قال محمد بن سحنون « انه ينبغى ان يعلمهم اعراب القرآن ذلك لازم والشكل والهجاء والخط الحسن » (ص 52) •

واما البرنامج الاختيارى فيحتوى على الفنون التى يمكن للمعلم ان يعلمها الصبيان تطوعا او بشرط يشرط وهى : الحساب وايام العرب واخبارها اى التاريخ وجميع النحو والعربية. ففى ذلك قال القابسى « وينبغى له ان يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له الا ان يشترط عليه ذلك . وكذلك الشعر والغريب وجميع النحو هو فى ذلك متطوع . ولا بأس ان يعلمهم الشعر مما لا فحش فيه ومن كلام العرب واخبارها وليس ذلك بواجب » •

ان المقصود من تعليم الصبيان الحساب هى غاية عملية ، فالحساب يعين على اجراء عمليات الفرائض والمعاملات ، وهو صالح للتاجر فى متجره والصانع فى مصنعه • ولانظن ان تعليمه كان لغاية تثقيفية مجردة •

ان تعليم ايام العرب واخبارها هو تعليم التاريخ • وقد جاء القرآن بذكر قصص الانبياء والبعض من الاحداث التاريخية مثل قصة يوسف وعاد وثمود ـ وذلك للاتعاظ والاعتبار « فاعتبروا يا اولى الالباب » •

لم ير فقهاء افريقية حرجا فى تعليم الشعر ـ وكان اغلبهم شعراء ـ كما كان يراه البعض من فقهاء المشرق ـ ولكنهم يشترطون ان يكون الشعر بعيدا عن الفحش ويكره منه « ما فيه ذكر الحمية (اى التعصب القبلى) والخنا او قبح الهجاء (القابسى ص 305) مستندين فى رايهم على قول النبىء « انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » • والقابسى على الاخص يرى ضرورة تعليم الشعر للصبى « الا انه يقيم لسانه ويفصحه ويانس اليه فى بعض الاوقات ويستشهد به فيما يريد بيانه » (القابسى ص 305) • وهكذا نلاحظ ان القابسى انتبه الى ان الشعر أدب وفن له تأثير حسن على النفس ويزيد ثقافة المرء •

ومن الفنون المستحب تعليمها للصبيان فى كل العصور « ايام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال وذوى المروءات (القابسى ص 304) • وهذا الحصر لا يشمل التاريخ فحسب بل يشمل العلوم الانسانية بصفة عامة • والقصد من ذلك هو تحريك

همم الصبيان وحثهم على فعل الخير والتمسك بالمروءة والتشبه بالرجال الكمل • وهذا له ارتباط متين بتعليم الادب (اى الاخلاق) الذى هو واجب • قال محمد بن سحنون : « وليعلمهم الادب فانه من الواجب لله عليه النصيحة وحفظهم ورعايتهم » (صفحة 53) •

نظام الكتاتيب

يبدأ الاسبوع الدراسى صبيحة يوم السبت وينتهى عند ظهر يوم الخميس فتكون التخلية الاسبوعية فى النصف الثانى من يوم الخميس وكامل يوم الجمعة •

يبتدىء الصبيان يومهم الدراسى بحفظ القرآن من الصباح الباكر الى الضحى ثم يتعلمون الكتابة من الضحى الى الظهر : « ويجعل الكتاب (اى الكتابة) من الضحى الى وقت الانقلاب » (ابن سحنون صفحة 51) • وعند ذلك ينصرفون الى بيوتهم لتناول الغداء ثم يعودون بعد صلاة الظهر (والظهر عند المالكية يصلى بعد الزوال بساعات قلائل ، حسب الفصول) •

وتخصص حصة المساء لتدريس بقية المواد التى نص عليها البرنامج كالنحو والحساب والعربية والشعر وايام العرب •

واما عشية الاربعاء وصباح الخميس فيخصصان للمراجعة والتخابر والاستظهار (القابسى صفحة 314) وتدوم هذه الحصة الى بعد صلاة العصر •

كما يخلى التلاميذ بمناسبة الاعياد حسبما يقتضيه عرف المكان. فبمناسبة عيد الفطر يخلون من يوم الى ثلاثة • « يوما قبل العيد ويوم العيد ويـوم ثانيه » (القابسى ص 317) وبمنـاسبة عيد الأضحى يخلون من ثلاثة ايام الى خمسة (ابن سحنون ص 48) •

ثـم ان العـادة شاءت ان يخلى الصبيان يوما او بعض يـوم بمناسبة ختم احد رفاقهم تعظيما للختمـة •

ومن هذا النظام يستنتج ما يلى :

اولا : يقدر النظام البيداغـوجى القديم قيمة الـراحة فى تـربية الاحداث •

ثانيا : لم تكن الراحات الاسبوعية او اليـومية مقـررة من طرف سلطة روحية او زمنية وانما كـان يتبـع فيهـا « عـرف الناس » •

ثالثا : يبدو ان المـدارس فى ذلك العصر لم تعطل بمناسبة راس العام الهجرى وعاشوراء والمـولد النبـوى الشريف ، فمن الراجح ان هذه المواسم لم تكن مدعاة للتخلية •

رابعا : لم تذكر المراجع التى لدينا وجـود راحـة او عطلـة سنوية ، فالغالب على الظن ان المعلم والتلاميذ لا يبرحون الكتاب كامل السنة الا ما كان من العطل المذكورة آنفـا •

طرق التعليم بالكتاب

يؤم التلاميذ الكتاب فى الصباح الباكر فيجدون المعلم جالسا فى صدر المجلس ، فيحيطون به فى شبه نصف دائرة قعودا على الحصر ، وفى حجر كل واحد منهم لوحه الذى كان كتبه بالامس . فيشرعون فى الحفظ فرادى كل على شاكلته لانهم غالبا ما يكونون متفاوتين فى الاحزاب . فتتصاعد اصواتهم مشتبكة مختلطة تصم الاذان . واما المعلم فياخذ بيد صغار التلاميذ يعينهم على التهجىء والحفظ والعصا لا تبرح يده يقرع بها راس من خفت صوته او تلهى عن الحفظ .

وعند الضحى يعرض الصبيان على المعلم ما حفظوه من الواحهم الواحد تلو الآخر . ثم يمحون الواحهم ويعرضونها للشمس او النار حتى تجف . وعند ذلك يحل وقت الكتابة فيبدأ المعلم فى املاء آية مستعملا طريقة غريبة . ذلك انه يملى على التلميذ الاول آية ويتركه يكتب ثم يقبل على الثانى فيملى عليه آيته . ثم يلتفت الى الثالث فالرابع وهكذا دواليك ... وبعد ذلك يعود الى الاول فيملى عليه متوخيا نفس الطريقة الاولى الى استيعاب الايات المزمع املاؤها على كل واحد منهم .

وقد يكلف كبار التلاميذ بنسخ احزابهم من المصحف مباشرة ثم يتعقب المعلم كتابتهم لتدارك ما قد يعلق بها من الاخطاء . واذا كان عدد التلاميذ مرتفعا اتخذ المعلم معه عريفا (مكرر) يعينه على الاملاء والكتابة والتعريض . ويشترط

سحنون « ان يكون العريف قد حفظ القرآن وهو مستغن عن التعليم » .

وقد يملي كبار التلاميذ على صغارهم : « ولا بأس ان يجعلهم يملي بعضهم على بعض لان ذلك منفعة لهم . » (ابن سحنون صفحة 51) .

بما ان التعليم فى الكتاب كان يرمى اولا وبالذات الى تحفيظ القرآن وتلقين مبادىء الدين ، كان يعتمد طبعا الذاكرة اعتمادا كليا (انظر ما كتبناه عن الذاكرة ودورها فى التعليم بالعدد 34 من النشرة التربوية) . وبالرغم من الدور الهام الذى كانت تقوم به الذاكرة فى التعليم فان المربين قد تنبهوا الى انها لا تكفى وحدها لاكتساب المعلومات واقرارها . ذلك اننا نرى القابسى يقسم طريقة التعليم الى ثلاث مراحل : الميل والوعى والاسترجاع .

فالميل هو الاقبال على القرآن ومحبته ويحصل بترغيب الصبى فيه . والوعى اى الادراك يحصل باجادة الترتيل والاعراب. والاسترجاع يحصل بالمراجعة المستمرة والتكرار « آناء الليل واطراف النهار » وهى لعمرى نفس المراحل التى نستعملها اليوم فى تعليم كثير من الفنون والتى تنحصر فى التشويق والتفهيم والمراجعة .

ومن طرق التعليم ايضا التخاير والتناظر اى التنافس . فالصبيان يجتمعون بعد الظهر يتذاكرون ويتنافسون فى الحفظ

والاعراب وغيرهما · فذلك مما يوقظ الشعور ويشحذ العزائم ويدعو الى الاجتهاد الا ان التنـافس قـد ينقلب شرا مستطيرا (انظر ما كتبناه فى التنافس بالعدد 8 من النشرة التربوية) · ولم تذكر المراجع التى بين ايدينا كيف كانت طـرق تعليم النحـو والحساب وايام العرب وغيرها فى العصر الذى نؤرخه · فالغالب على الظن انهم كانـوا يعتمدون الحافظة الى حد بعيد ·

العقـــاب

لقد جـاء الدين الاسلامى بتقرير مبدأ العقـوبة الا ان الله نصح العباد بالصفح عند المقدرة والحلم عند الظفر اذ قال سبحانه وتعالى : « وجزاء سيئة مثلها • فمن عفا وأصلح فاجره على الله • انـه لا يحب الظالمين » (سورة الشورى) •

فاستنادا الى هذا الاساس جعل المربون التونسيون الرفق مبدأ كـل عقاب على ان يكون الرفق مشفوعا بالحزم •

فنصحوا المربى بالتغاضى فى أول الامر حتى اذا عاد الطفل الى الخطيئة قابلوه بالعبوس ، على الا يكـون المـربى عبوسا مـع التلاميذ دائما خيفة من ان تزول هيبته معهـم • ففى هذا الصدد يقول القابسى « فكونه عبـوسا ابدا من الفظاظة الممقوتة ويأنس الصبيان بها فيجترئون عليه » •

ومن الرفق الا يبادر المعلم بالعقاب اذا استأهل الطفل ذلك وانما ينبه الصبى المرة تلو الاخرى واذا لم يفد ذلك يعذل ويقرع « ••• فنبه مرة بعد مرة فاكثر التغافـل ولـم يغـن فيه العـذل والتقريع بالكـلام ••• » (القـابسى صفحة 312) •

ويشترط المـربون التـونسيون عـلى الا يكون التقريـع بالكلام البذىء والشتم ، بل هم ينصحون المعلم بان يكون تقريعه « من غير شتم ولا سب لعرض » لعلمهم بان الاهانـة التى تلحق

من جراء ذلك بالصبى تنال من كرامته وتجرح عاطفته وتخدش كبرياءه ، ولربما تسببت له فى عقد نفسية ومركبات يتحتم تجنبها .

كما انهم يوصون المعلم بالا يسلط العقاب وهو فى حالة غضب « فان ذلك الغضب اذا اصابه فانما ضرب اولاد المسلمين لراحة نفسه ، وهذا ليس من العدل (القابسى ص 313) وزيادة على هذا التعليل النفسى يستند القابسى فى حكمه جريا على عادته على الحديث الشريف : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » .

وبما ان حرمان الصبى من راحته وطعامه وشرابه هى اشد عقوبة تسلط عليه لانها تنال من توازنه الجسمى فان المربين التونسين حجروا هذا النوع من العقاب من باب الرفق . وقد كان معمولا بهذه العقوبة فى اروبا الى عهد قريب . وهى منافية لابسط المبادىء التربوية . ففى ذلك يقول القابسى « ومن رفقه بالصبيان ان الصبى اذا ارسل وراءه ليتغدى فيأذن له ولا يمنعه من طعامه وشرابه » (القابسى ص 313) .

ولكن اذا لم تنجح طرق التأديب الآنفة الذكر مع نصح واخافة أدبية وتهديد وعذل وتقريع لجأ المعلم الى الضرب وهو عقاب رادع زاجر فى آن واحد .

والضرب لا يستأهله الطفل الا « اذا افرط فتثاقل عن الاقبال على المعلم فتباطأ فى حفظه او اكثر الاخطاء فى حزبه او فى كتابة لوحه . » ولكن لا يقرر الضرب « الا اذا نبه مرة فاكثر

التغافل ولـم يغن فيه العذل والتقريـع بالكلام » (القابسى ص 312) ٠

ومن المحقق ان عقوبة الضرب لم تكن محببة لـدى السلف ، بـل كانوا يحبذون تجنبها جهد المستطاع ٠

قـال سحنون لمعلـم ابنه محمد « لا تؤدبه الا بالمدح ولطف الكلام ٠ فليس هو ممن يؤدب بالضرب والعنف » (معالم الايمان ٠ الجزء الثانى ص 80) ٠

وفى صورة استئهال الضرب ينبه المربون الى اجتناب القهر والعسف مع المربى لما يورث ذلك فيه من عقد نفسية وسوء خلق وخبث ٠ واليكم ما يقوله عبد الرحمان بن خلدون فى هذا الصدد : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس فى انبساطها وذهب بنشاطهـا ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث »: (المقدمة ص 540) ٠

على ان الضرب الذى اوصى به المربون ينبغى الا يتجاوز ثلاث ضربات على الرجلين : « لا ينبغى لمؤدب الصبيان ان يزيد فى ضربهم اذا احتاجوا اليه (اى اذا استأهلوا) على ثلاثة اسواط شيئا » (ابن سحنون ص 32) ٠

وقد احاط المربون عقوبة الضرب بجمهرة من الاحتياطات حتى لا تؤثر فى نفس الصبى او فى جسمه تأثيرا فاحشا ٠ فمن ذلك : الا يقع الضرب الا على ذنب والا يسلط الا بقدر الاستئهـال

وان يكون الضرب من واحدة الى ثلاث الا فى بعض الحالات يستأذن فيها القائم بامر الصبى ، والا يضرب الصبى فى غير الرجلين « وينبغى ان يكون عود الدرة رطبا مأمونا » (القابسى ص 313).

ان التربية الحديثة والتراتيب المدرسية فى الامم المتحضرة جاءت بتحجير تسليط العقوبات البدنية على الاطلاق ، وذلك لان الضرب يلحق الاهانة بالصبى وينال من كرامته ويوغر صدره على المعلم وينفره من التعليم والمدرسة ويحقره فى اعين رفاقه ويحز فى نفسه ويعلمه الرياء والكذب والمراوغة الى آخره ... فلذلك نرى المربين التونسيين ينزعون الى تحاشى العقاب البدنى .

ومع هذا فاننا نجد مربيا معاصرا لا يرى حرجا فى تسليط عقوبة الضرب احيانا محبذا فى ذلك رأى جون لوك واعنى به الاستاذ جان شتو (Jean Château) الذى يقول : « يجب قبل كل شىء ان يحافظ المربى على هيبته، واذا ما ظلت الاوامر والنواهى غير ناجعة يجب ان تسلط العقوبات ولو ضربا بالسوط . لان المربى اذا فقد بذلك محبة تلاميذه له فلا يفقد هيبته معهم ، ولكن اذا ما فقدتم يوما نفوذكم فقدتم فى آن واحد الهيبة والحب معا . »

(Ecole et Education par Jean Château page 90. Librairie philosophique - Paris 1957

التــــلاميــــذ

يبدو ان التربية الاسلامية كغيرها فى العصور المتقدمة لم تكن تعنى بالطفل عنايتها بالمواد التى تعلم • فكان العمل التربوى يرمى الى حشو الادمغة بالمعلومات حشـوا عن طـريق الحفظ • فلذلك كان للحافظة دورها فى التعليم فكانت قيمة الطالب تقاس بكمية المعلومات التى تحصل عليها • وقـد انتبه عبد الرحمـان بن خلدون الى هذا الخلل فى التربية الاسلامية • فبعد ان بسط هذه الطريقة التلقينية التى كـانت تعتمد الحافظة الى حد بعيد نقدها نقدا لاذعا وعرض طريقة ترمى الى تكوين العقـل وانماء مختلف الملكات حتى لا تطغى احداهن على الاخرى (انظر الفصول 28 ـ 29 ـ 30 ـ 37 ـ 41 من الباب السادس من المقدمة) •

كان التعليم فى العصر الذى نؤرخه شكليا مبنيا على الامـر والنهى قوامه التقليد والمحاكاة والانقياد • فلا تحترم فيه شخصية الطفل النامية الا عرضا لان الأول كانوا جاهلين بعلم نفس الطفل • فالمعول عندهم هو ما حصل عليه الصبى من مختلف العلوم وخصوصا ما حفظ من القرآن حفظا صحيحا • ذلك ان الكتاب لم يؤسس قصد اعداد الناشئة للاضطلاع باعباء الحياة وانما كانت غايته تهدف الى اعداد المرء ليكون مـؤمنا بالله ومسلما يؤدى واجباته الدينية على الوجه الكامل (القابسى ص 269) .

يدخل الصبى الكتاب وهو ابن ست سنوات او سبع او اكثر من ذلك حسب الظروف والاحوال • فيحمل من اول يوم على حفظ

القرآن وتعلم ما يساعده على ذلك . واذا ما حفظ القـرآن حفظا جيدا جزءا او كلا وجه اما لصناعة يستعين بها على حياتـه او الى التعليم الثانوى ، ولكن لا يقبل عـلى هذا التعليم الا القليـل من الصبيان .

ان التعليم كان حـرا ولم يكن للامـام على الاولياء جبر فى تعليم ابنائهم .

الـــزاميـــة التعليـــم

لم يرد فى القرآن والسنة ما يوجب الزام التعليم الذى بقى فرض كفاية ، كما ان المسألة لم تتطرح على بساط البحث فى بلاد الاسلام قاطبة • فكان القابسى اول من طرح هذه المشكلة وافتى فيها بوجوب تعليم جميع الصبيان مهمـا كانت حـالتهم المـالية • والقابسى الذى هو من عـادته مقلد لأيمة المذهب يتعمد الاجتهاد فى هذه القضية الاجتماعية الشائكـة ويصدر فيها حكمه بطريقة محكمــة •

« وادلة القابسى قوية اخاذة تنقلك من فكرة الى اخرى حتى ينتهى بـك الى ان تعليم جميع الصبيان ضرورى وواجب وان هذا الوجوب هو الـوجوب الشرعى على طريقة الفقهاء » (الاهوانى : التربية فى الاسلام صفحة 91) •

يتدرج القابسى فى حكمه على النحو التالى (صفحة 290)

1) ـ امر المسلمون بـان يعلموا اولادهم الصلاة والوضوء لهـا •••

2) ـ لا بد لهم اذ علموهم الصلاة ان يعلموهم من القرآن ما يقـرؤونه فيها

3) ـ كل والـد عاقـل لا يقعد عن تعليم ابنه

4) ــ ان حكم الولد بالدين حكم والده ودليله على ذلك قوله صلعم « كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانـــه »٠

5) ــ اذا كان الاب عاجزا عن تعليم ابنه لقلة ما فى اليد فمن مـــال الولـــد

6 ــ فاذا لم يكن له مال فامـــه او اولياؤه الاقرب فالاقرب٠ وان لـــم يكن لليتيم من اهلـــه من يعنى بـــه فى ذلك فمن تطوع من المحسنين ٠ وان لم يتطوع احد لذلك فالمعلم يعلمه مجانا واجره على الله ، او من بيت مال المسلمين ٠

هذا ويـــرى القابسى ان ليس للسلطة الحـــاكمة ان تجبر الاب على تعليم ابنه اذ قال : « وليس للامام ان يجبره وانما يوعظ ويؤثم » ٠ فبذلك لم تكن فتوى القابسى حاسمة حيث انه لم يجد لها اصلا فى مصادر التشريع وانما الفكرة التى اراد القـــابسى ان يصل اليها هى تعليم جميع ابناء المسلمين اغنياء وفقراء ، وهذا هو التعليم الالزامى بعينه اعلنه القابسى فى القرن العاشر الميلادى يوم كانت اوربـــا تتخبط فى دياجيـــر الجهـــل ٠

تعليـــم البنـــات

ان مسألة الزامية التعليم تجـرنا حتما الى مشكلـة تعليم البنات التى اثارت بين المربين المسلمين آراء مختلفة تارة وتـارة متناقضة ·

لم يرد نص فى القرآن او فى السنة يحرم تعليم البنات ، بل الامر بالعكس ، فلقد وجدنا آيات واحاديث كثيرة تحظ عـلى التعليم من دون ان تجعل ميزا او فوارق بين الجنسين ·

لكننا نرى من حين لآخـر بعض الكتاب الشرقيين القدامى ينكرون تعليم البنت · فيقـول الجاحظ مثلا فى الجـزء الثانى من كتاب البيان والتبيين صفحة 180 ما نصه :

« وكان يقال : لا تعلموا بناتكـم الكتـاب (اى الكتابـة) ولا ترووهن الشعر وعلموهن القرآن ومن القرآن سورة النور »· ومن المعلوم ان الجاحظ يستهزىء هنا بمن يريدون تحجير تعليم البنات.

واما ابو العلاء المعرى فكان يكره تعليم البنت وكان يـوصى اهلها بان يجنبوها القراءة والكتابة (كتاب سقط الزند) ·

وقد ذهب التغـالى بأبى الثناء الألوسى الى ان ألف رسالة خاصة فى تحريم تعليم الفتاة اسماها : « الاصابة فى منع النساء من تعلم الكتابة »·

ولكن هذه الآراء تعتبر شاذة ، فلقد تعلمت المرأة المسلمة قديما وحديثا ونبغ من بين النساء المسلمات عـدد لا يحصى (راجع كتاب شهيرات العرب) .

واما فى افـريقية فقد طرحت المشكلة عـلى بساط النقش ولم يتعرض الفقهـاء الى تحريم تعليم البنـات او حتى تكريهه . ولكنهم كانوا يفضلون تعليم البنات عـلى حـده غيـر مختلطـات بالصبيان . فقال سحنون فى هذا الصدد « اكره ان يعلم الجـوارى ويختلطن مـع الغلمان لان ذلك فساد لهن (ابن سحنون ص 56). وقـد اتبعه فى هذا القول ابـو الحسن القابسى حيث قال : « من حسن النظر الا يخلط بين الذكران والاناث ..»(ص 314) . ثم قال فى الصفحة 392 ما نصه «واما تعليم الانثى القـرآن والعلـم فهو حسن ومن مصالحها . فاما ان تعلم الترسل والشعـر وما اشبهـه فهو مخوف عليهـا » (انظر ما كتبناه فى التعليم المشترك بالعد 37 من النشرة التربوية الصادرة فى افريل 1966 وبجريدة العمل المـؤرخة فى 15 اكتوبر 1968) .

وكان الامراء والكبراء والاعيان بافريقية حريصين على تعليم بناتهم . فلقد اجتهد القاضى الامير اسد بن الفرات فى تثقيف ابنته اسماء التى نالت من العلم درجة عالية . كما عنى الامـام سحنون بتعليم ابنته خـديجة التى كانت تحلـق حـولها الحلقـات لتعليـم النساء . وكـان القاضى عيسى بن مسكين يعلـم الصبيـان فى النهار « فاذا كان بعـد العصر دعـا بنته وبنات اخيـه ليعلمهن القرآن والعلم » (كتاب المـدارك للقاضى عياض) .

واذا ما تصفح القارىء كتاب « شهيرات التونسيات » للاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب انتبه الى كثرة النساء المتعلمات اللائى عشن فى هذا البلد ·

وكثرة النساء المثقفات من بنات الاسر الكريمة سواء فى المشرق او فى افريقية ينافى ادعاء القائلين بان العرب كانوا حريصين على تعليم الجوارى دون الحرائر لان التعليم يرفع من ثمن الجارية ...

وصفوة القول هى ان الاسلام لم يحرم التعليم على الفتاة ولكن الذى نهى عنه بعض العلماء هو قول الشعر الفاحش · « واما ان تقول الشعر الحكيم الرصين وتتعلم المحكم الحسن والجيد فامر يدعو اليه الشرع » (القابسى) ·

المعلـــم

لم تكن للمعلم شخصية بارزة فى العصر الذى نؤرخه • فلم يكن من رجال العلم والادب والفقه فى الغالب • بل كان فى عداد الاجيرين الذين يكدحون اليوم كله والسنة كلها للحصول على قوتهم • فلم يشترط فيه الا ان يكون حافظا للقرآن وعارفا بالكتابة وورعا تقيا •

ومع هذا فقد نبغ افذاذ من المعلمين التونسيين اشتهروا بالعلم والصلاح امثال ابى اسحاق الجبنيانى ومحرز بن خلف الذى لعب ادوارا سياسية هامة ضد الشيعة العبيديين •

وهنا ينبغى التمييز بين المعلمين الذين يتولون التعليم لابناء العامة من عموم الشعب و بين المؤدبين الذين ينتدبون لتعليم ابناء الخاصة من ملوك وامراء وكبراء فى القصور والدور • فهؤلاء يكونون عادة من أهل العلم والادب ولا يدعون معلمين بل مؤدبين • فكانت منزلتهم الاجتماعية عالية بالنسبة لمعلمى ابناء العامة •

ويبدو ان المعلمين انفسهم كانوا صنفين : صنف لا يحسن الا القرآن والكتابة وصنف يعرف الى جانب ذلك الشكل والهجاء وعلم العربية والنحو والشعر والحساب • فجعل القابسى تفاضلا بينهما فى الاجارة اذا كانا يعملان معا فى كتاب واحد •

وقد يستعين المعلم بعريف ينتخبه من بين كبار الصبيان الذين حفظوا القرآن ولكن على شرط الا يلهيه هذا العمل عن تعلمه او ان يكون مستغنيا عن التعليم (ابن سحنون ص 52) ·

كما انه يمكن ان يشترك معلمان او اكثر فى العمل بكتاب واحد · « واما شركة معلمين او ثلاثة واربعة فهى جائزة الا اذا كانوا فى مكان واحد » (القابسى ص 322) ·

وتشترط فى المعلم صفات من الكمال دينية وخلقية وصناعية :

فمن الناحية الدينية يشترط فيه ان يكون تقيا ورعا لا ياتى الكبائر ولا الصغائر قائما بفروض دينية ·

ومن الناحية الاخلاقية يجب عليه ان يكون رفيقا بالصبيان « ومن حسن رعايته لهم ان يكون بهم رفيقا » «فانما هو عوض عن ابائهم » (القابسى ص 211 ــ 312) وان يعدل بين الصبيان « وليجعلهم بالسواء فى التعليم الشريف والوضيع »(ابن سحنون) وهذا مصداق قول النبى (صلعم) « ايما مؤدب ولى ثلاثة من صبية هذه الامة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين »·

كما يطلب من المعلم ان يلازم الرصانة والوقار مع تلاميذه «فلا يتبسط لهم تبسط الاستئناس فى غير تقبض موحش فى كل الاحيان ··· ولا يضاحك احدا منهم» ولكن على شرط ان لا يظل

« عبوسا ابدا فذلك من الفظاظة الممقوتة ويستأنس الصبيان بها فيجترئون عليه » (القابسى ص 312) .

ومن واجبات المعلم ايضا حسن رعاية تلاميذه « لان نظره فيمن التزم النظر له من الصبيان رعاية يدخل بها في قول الرسول : كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته » (القابسى ص 312) .

ومن الناحية الصناعية يجب على المعلم ان يكون حافظا للقرآن حفظا جيدا وعارفا بالهجاء والنحو والشكل واصول الدين مع الاخلاص والاجتهاد اللذين هما اساس كل نجاح « فلا يجوز للمعلم ان يشتغل عن الصبيان ... وليلزم الاجتهاد وليتفرغ لهم »... ولا يجوز له ان يرسل الصبيان فى حوائجه ... وعليه ان يتفقدهم بالتعليم والعرض ... وليتفقد املاءهم (ابن سحنون) .

ومقابل هذه المسؤولية خولت للمعلم سلطة فعالة على تلاميذه يستمدها من الوالد اذ يقوم مقامه ويحل محله فى تربية الابناء وتثقيفهم « لانه هو المأخوذ بايديهم والناظر فى زجرهم عما لا يصلح لهم والقائم باكراههم على مثل منافعهم » (القابسى ص 312) .

لم يكن المعلم يعلم مجانا فى الغالب بل كان يتقاضى ـ مقابل عمله ـ اجرا يتفق عليه مع اولياء التلاميذ اما مشاهرة او مساناة . واحيانا قد لا يقع اتفاق بينه وبينهم بل يترك أمر الاجارة لكرم الوالدين وهمتهم .

وكان اغلب فقهاء المسلمين يجـوزون اخـذ الاجر عن تعليم القرآن وغيره من العلوم • وبالرغـم من ان البعض منهم ـ مثل الغزالى ـ كان يستقبح تناول الاجـرة عن التعليم نـرى القابسى يجترىء على الافتاء فى ذلك بقوله «انه لو اعتمد الناس على التطوع لضاع كثير من الصبيان ولما تعلم القرآن كثير من الناس • فتكون هى الضرورة القائدة الى السقوط فى فقد القـرآن من الصدور والـداعيـة التى تثبـت ابنـاء المسلمين الى الجهـالة • فلا وجـه لتضييق ما لم يات فيه ضيق» (القابسى ص 215) •

الخـــاتمـــة

نعم لـم يكن التعليم فى الكتـاتيب مـركزا عـلى قـواعد بيداغوجية سليمة تضمن للطفل بناء شخصيته النامية واستكمال ملكاته العقلية بالوجه الذى نفهمه نحن اليوم اى حسب مبادىء علم النفس الحديث • ذلك ان الكتاب انما اسس لتحفيظ القـرآن اولا وبالذات ثم لتعليم اصول الدين وما يساعد عـلى الحصول على ذلك • فعلى هذا الاساس كـان تعليم الكتاب يهدف الى تـزكية الروح والسمو بالخلق الدينى •

ومـع هذا فان هذه المـؤسسة الاجتماعية قـامت بـدور هام جدا فى حياة الامة الاسلامية العلميـة والثقـافية • فتعليـم الكتاتيب ظل ـ على علاته ـ الـوسيلة الوحيدة التى كانت تؤهل

الطلبة الى التعليم الجامعى طيلة احقاب ٠ وقد ساهم مساهمة فعالة فى رفع الامية وتفتح الاذهان والبصائر ٠ فجميع رجال الفكر والعلم والادب والفقه والذين نبغوا فى العالم الاسلامى زاولوا تعلمهم الابتدائى فى الكتاتيب ٠

الفصـــل الســادس

التعليـــم بالمساجـد

انشــاء المساجــد :

ان القصد الاول من تشييد المساجد فى الاسلام هو اقــامة الصلاة وعبادة الله بدليل قــوله تعــالى :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله » (سورة التوبة)

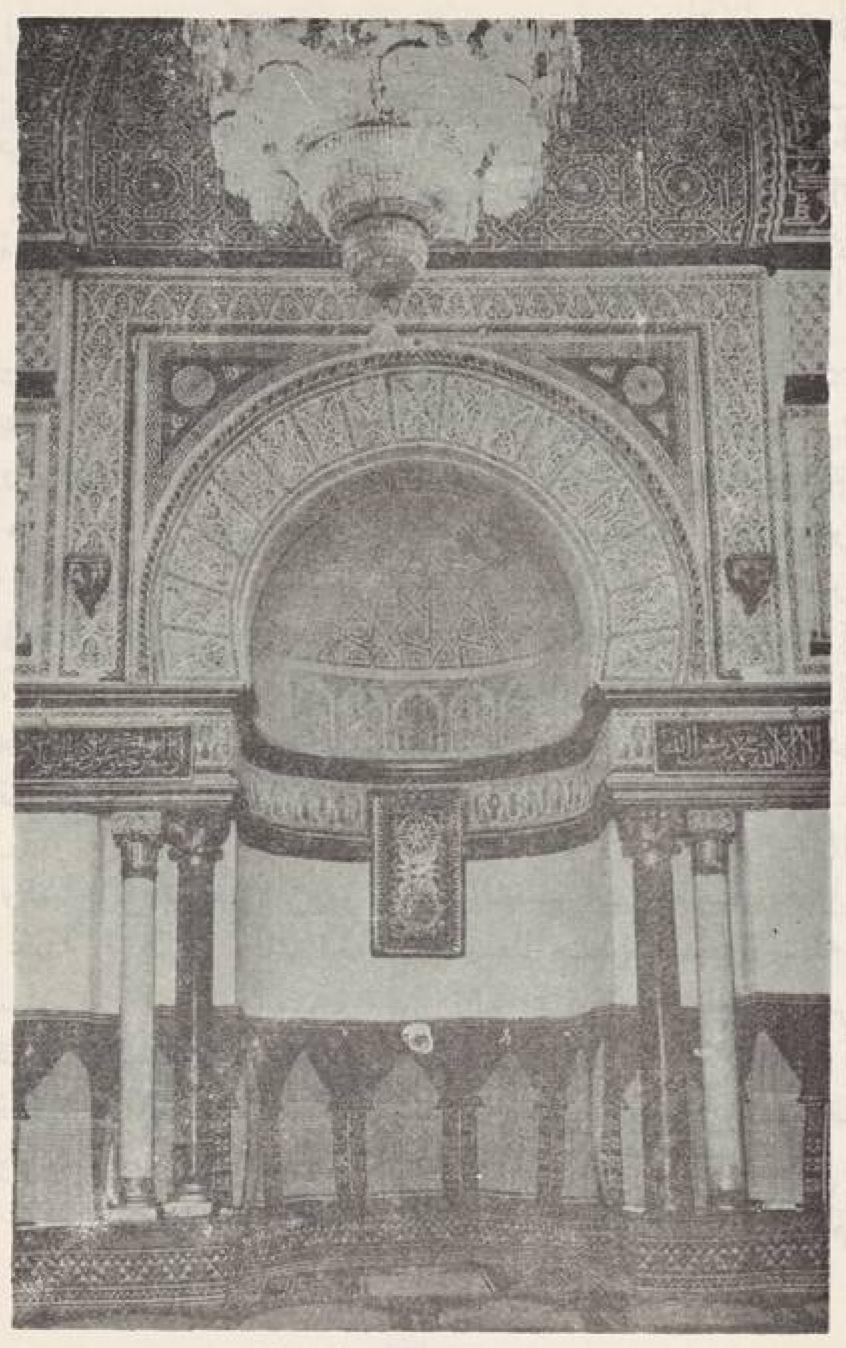
« مساجد يذكر فيها اسم الله » (سورة الحج)

« وانتم عاكفون فى المساجد » (سورة البقرة)

« وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا » (سورة الجن)

فلهذه الغاية نفسها اختط النبىء صلى الله عليه وسلم اول مسجد فى الاسلام وهو مسجــد قبــاء الذى بنى على التقوى ثــم بنى (صلعم) جامع المدينة ·

وبعد الرسول بنى العرب الفاتحون جامع الكوفة سنة 14 هـ وجامع البصرة سنة 17 هـ وجامع دمشق سنة 19 هـ وجامع الفسطاط سنة 21 هـ وجامع القيروان سنة 51 هـ وجامع الزيتونة سنة 80 هـ·



جامع الزيتونة بتونس (المحراب)

لم يبق من جامع القيروان الذى اختطه عقبة بن نافع الا محراب من تراب يرى من خلال لوحات الرخام المخرمة التى تزخرف بها المحراب الحالى . وقد ابقى محراب عقبة على حالته الاولى تبركا باول قبلة بنيت فى افريقية . ولقد ادخل الولاة والامراء الاغالبة على جامع عقبة تغييرات اساسية قبل ان يصبح على هيئته الحالية . من ذلك ان حسان بن النعمان هدمه من اساسه وبناه بناء جديدا سنة 77 هـ. ثم ادخل على الجامع تحسينات وتغييرات على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 157 هـ. ثم جاء زيادة الله الاول الاغلبى فشرع فى تجديد بناء جامع عقبة سنة 221 هـ. الا انه مات دون ان يتم عمله فواصل البناء بعده ابو ابراهيم احمد . واما بلاطة باب البهو وقبته الجميلة فمن عمل ابراهيم الثانى الاغلبى . ومما لا ريب فيه هو ان منبر جامع عقبة الحالى اثر اغلبى ، امر بصنعه الامير أبو ابراهيم احمد وهو منبر عجيب الصنعة يتألف من مائتين واثنتين وخمسين لوحة خشبية تنحصر كل منها فى اطار زخرفى دقيق الشكل .

وقد حل بجامع الزيتونة من التغييرات المعمارية ما حل بجامع عقبة . فكان ذلك الجامع بسيطا جدا عندما اختطه لاول مرة حسان بن النعمان سنة 80 هـ . ثم اعاد بناءه باحسن من ذى قبل القائد الاموى عبد الله بن الحبحاب سنة 116 هـ. وفى آخر الامر جدده من اصله وزخرفه الامير الاغلبى ابو ابراهيم احمد . وبعد وفاته واصل بناء جامع الزيتونة زيادة الله الثانى سنة 250 هـ. واما الاروقة الاربعة اى المجنبات المحيطة بالصحن فلم تكن

من الوضع الاغلبى بل بنيت على عهد الدولة الصنهاجية . ومما تجدر الاشارة اليه هو ان جامع الزيتونة كان خلوا من المئذنة فى العصور الاولى . فالمئذنة الحالية بنيت سنة 1312 هـ (1896) م . ويحقق لنا الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ان منبر جامع الزيتونة هو الآخر اثر اغلبى . (كتاب الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب ص 120) ج 1 .

ولمزيد التعرف على المساجد التونسية انظر كتاب « آثار تونس الاسلامية ومصادر الفن الاسلامى لاحمد فكرى . تونس 1949» ـ وكتاب «المسجد الجامع بالقيروان» لاحمد فكرى طبع دار المعارف بمصر سنة 1936) .

ومن المساجد الجامعة التى اسست فى العصر الذى نؤرخه والتى كانت فى الآن نفسه معاهد للتعليم يحسن ان نذكر جامع سوسة الذى اسس سنة 237 هـ. ثم زيد فيه بلاطات واروقة على العهد الاغلبى والعهد الصنهاجى . واما رواق باب البهو فقد شيد على العهد التركى (انظر كتاب « سوسة جوهرة الساحل » للاستاذ سليمان مصطفى زبيس ص 22 . المطبعة العصرية . تونس 1965) .

ومن الجدير بالذكر ايضا جميع المساجد الجامعة التى شيدت بالمدن والعواصم الافريقية والتى كانت تعقد فيها حلقات العلم وتلك كجوامع صفاقس وتوزر وقفصة وقابس وباجة وبسكرة وقسنطينة والمهدية الخ...

ولفظة مسجد اعم من لفظة جامع فالمسجد هو مكان السجود بصرف النظر عن كونه كبيرا او صغيرا • واما المسجد الجامع فهو واسع الاركان تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين وقد يقوم بادوار هامة فى الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والقضائية كما سنبين ذلك فيما بعد •

دور المسجد فى الحياة العامة

لقد اسلفنا ان المساجد شيدت قصد عبادة الله اولا وبالذات كما دلت على ذلك آيات بينات كثيرة اوردنا البعض منها آنفا • لكن مالبثت المساجد حتى اصبحت مراكز ثقافية • والسبب فى ذلك هو ان الدراسات كانت فى سنى الاسلام الاولى دراسات دينية تشرح تعاليم الدين وتوضح اسسه واحكامه واهدافه وهذه تتصل بالمساجد اوثق الاتصال •

وعلاوة على ذلك فان المسجد الجامع كان المركز الكبير للحياة الاجتماعية فى البلاد : ففيه كان الامراء والزعماء يعقدون الاجتماعات العمومية لاخذ راى الامة فى الشؤون الهامة التى يعتزمون القيام بها مثل تجهيز الغزوات وذلك قصد اشراك الشعب فيها • من ذلك ان الزعيم البربرى مخلد بن كداد ـ صاحب الحمار ـ جمع اهل السنة برحاب جامع عقبة بالقيروان سنة 333 هـ ووعظهم • ومن الجامع الكبير انطلق المقاتلون من خوارج وسنية زاحفين الى اسوار المهدية عاصمة بنى عبيد •

كما ان الامراء كانوا يجمعون فى الجامع كبار العلماء ووفود الامة بمناسبة اختيار قاضى الجماعة • وكان الجامع ايضا محكمة يتقاضى فيها المتقاضون لدى الامير او لدى القاضى « فكان ابراهيم بن الاغلب الثانى يجلس للعدل فى جامع القيروان يومى الخميس والاثنين يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم ـ (الكامل فى التاريخ لابن الاثير الجزء 7 ص II2) ـ واما محكمة الامام سحنون فهى معروفة الآن باحدى مجنبات جامع عقبة بالقيروان ـ كما ان الفقهاء كانوا يجلسون للافتاء بالجامع ، فكانت تغدو عليهم وتروح وفود المستفتين ـ وكانت حفلات القران ايضا تقام بالجوامع •

وهكذا كان الجامع معبدا ومدرسة ومحكمة ومحل اجتماعات عمومية كما كانت الأكوار (AGORA) عند اليونان والفوروم (FORUM) عند الرومان •

وكان البعض من البطالين يجتمعون بجامع القيروان قصد الاخذ من اعراض الناس وهم الذين تحدث عنهم الخشنى فى طبقاته (صفحة I88) اذ قال : « كانت بالقيروان طبقة تسمى « الركنية » كانوا لا شغل لهم • فكان جلوسهم ومجتمعهم فى ركن الجامع فلزمهم هذا الاسم • وكان الناس يدارونهم ويتقون السنتهم » •

برامج التدريس بالمساجد

كان التعليم فى بادىء الامر بسيطا يتمثل فى قصص كان

المقصود منها تذكير الناس شؤون الآخرة وتعليمهم امور دينهم وكانت القصص ممزوجة بضروب من العلوم والحكمة والموعظة الحسنة والخرافات فى بعض الاحيان (الاسرائليات) ٠

واستمرت العلوم الدينية من تفسير وحديث تروى فى حلق التعليم بالمساجد ولم تكن مذاهب السنة تمخضت بعد ٠ وكان اصحاب الملل والنحل المختلفة يجتمعون فى المساجد ويتظاهرون فى مذاهبهم ويلقون الدروس فيها ٠ ودامت هذه الحال الى اواسط القرن الثالث عندما تولى سحنون قضاء افريقية سنة 234 هـ فمنع وقتئذ التدريس بجامع عقبة على من لم يكونوا على مذهب السنة (طبقات ابى العرب ص 102 ـ رياض النفوس للمالكى الجزء الاول ص 201 ـ معالم الايمان ج 2 ـ ص 55) ٠

وما زالت العلوم تزداد تنوعا وتشعبا بتقدم الحضارة فتحمض علم الفقه واصبح النحو علما يدرس على حده ٠ وحلقت حلقات لدراسة الادب والتاريخ والحساب والفلك وعلم الكلام والفلسفة والطب والطبيعيات والموسيقى ٠

وكان المذهب السائد هو المذهب المالكى وقد نبغ فيه علماء فطاحل على امثال سحنون وابنه محمد ويحيى بن عمر والقابسى وغيرهم ٠

كما ان المذهب الحنفى كان شائعا بين طبقات الشعب وقد انتشر بفضل اسد بن الفرات و تلميذه سليمان بن عمران ومحمد بن عبدون الرعينى واحمد بن القيار ٠

ولما حكم بنو عبيد الفاطميون البلاد واظهروا نحلتهم الشعية علانية امروا بتعطيل تعليم اصول الشريعة على مذاهب السنة ومنعوا شيوخ القيروان من القاء دروسهم فى جامع عقبة اللهم الا دروس اللغة العربية وما ليس له مساس بالعقائد . فركن شيوخ المالكية والحنفية الى اقراء تلاميذهم تلك العلوم فى بيوتهم ودكاكين حرفهم .

لكن بمجرد نزوح الملوك الفاطمين الى مصر بعد احتلالهم اياها عادت الدراسات السنية الى ما كانت عليه .

طـرق التعليـم بالمساجـد

كان الشيخ يجلس علـى حصير او على حشية صغيرة او على بساط، ولربما كـان منهـم من يجلس على كرسى حتى يسمعـه كل الحـاضرين • فمن ذلك « ان يحيى بن عمر الكنانى كان يجلس فى الجامع (جامع القيروان ثم جامع سوسة) للاقـراء وينصب لـه كـرسى يجلس عليه ليسمع من بعد من النـاس لكثرة من يحضر مجلسه » المدارك للقاضى عياض • الجزء الثانى ص 10) •

وكان الطلبة يجلسون حول الشيوخ حلقـات تتفاوت عـددا حسب قيمـة الاستاذ العلمية وحسب الظروف والاحوال • ففى زمن الحرث او الحصاد مثلا يعود اغلب الطلبـة الى باديتهم للقيـام باشغال الفلاحة : قال اسد بن الفرات معاتبا تاجرا كان يختلف اليه باستمرار ويترك تجارته فى سبيـل طلب العلم : « انظـر الى هؤلاء الذين ياتون من باديتهم ، انما هم اهل حرث وحصاد • فاذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم تراحـدا منهم يجىء الينا • فاذا كان انقضى حرثهم وحصادهم عادوا الى ما كانـوا عليـه من الـدراسة (رياض النفوس للمالكى ج 1 ص 185) •

وكان الشيخ يفتتح الـدرس بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبى وربما تلا آيات من القرآن الكريم او احاديث شريفة تحث على طلب العلم .

اذا كان الشيخ يستمد درسه من معلوماته او من مذكرات كتبها لنفسه فان الدرس يسمى املاء مثل (كتاب الامالى) لسعيد ابن الحداد تلميذ سحنون (219 ـ 302 هـ) وامالى عبد الله بن طالب فى ثلاثة اجزاء (توفى سنة 275هـ) • وفى هذه الحال يتقدم الدرس ببطء وتؤدة يلقى مسألة مسألة او حديثا حديثا • فيدون الطلاب ما يمليه الشيخ فى كنانيش لهم . فاذا ما انتهى المدرس من املاء المسألة او الحديث شرع فى شرحه وايضاحه لفظا ومعنى • فيسجل الطلاب هذا الشرح على هامش الاوراق التى كتب عليها الاصل او قفاها •

وعند اكتمال امالى الشيخ فى ذلك الفن فانه قد يقرأ الامالى بنفسه او تقرأ عليه لتدارك ما قد يعلق بها من الاخطاء ، وعندها يوقع على نسخ الطلاب ذاكرا انه يجيز الطالب فى ان يروى ذلك الفن عنه او ان يدرسه باذن منه •

ولكن اذا ما كان الدرس مستمدا من كتاب يمكن للطلبة الحصول عليه فعليهم ان يقتنوا ذلك الكتاب وان يعدوا درسهم قبل موعده • ثم يجلسون الى الشيخ فيقدم للدرس بمقدمة عامة ثم يشرع هو او احد الطلبة فى قراءته من الكتاب ، والتلاميذ يستمعون اليه ناظرين فى نسخهم ويقطع المدرس قراءته من حين الى آخر ليشرح لتلاميذه اللفظة الشاذة او العبارة المغلقة او المعنى العويص • وهكذا دواليك الى استيعاب الكتاب جزءا او كلا •

ويختم الدرس بقول المدرس « والله ورسوله اعلم » ثم

تتلى فاتحة الكتاب وبعدها يتقدم التلاميذ بشكر الشيخ والترحيم على والديه والدعاء له ·

وكان لكل طالب ان يسأل اى سؤال لاستيضاح ما صعب عليه · وكانت الاسئلة تجرى تبعا لآداب خاصة « فكان على الطالب ان يسأل تفقها لا تعنتا ولا رياء » (العمدة لابن رشيق) · ثم كان عليه ان يختار الوقت المناسب لالقاء سؤاله ·

وكان المدرس يقوم احيانا مقام السائل فيلقى على الطلاب بضعة اسئلة ليختبر فهمهم ويجيب بنفسه على ما تعذر عليهم الاصابة فيه ·

« وكانت طريقة القزاز في مجلس دروسه ان يلقى على الطلبة مشكلات المسائل اللغوية ويطرح عليهم ابيات الشعر العويصة ويطلب منهم فك معانيها وتفسير الفاظها » (نقلناه ببعض التصرف من كتاب العمدة لابن رشيق صفحة 211) ·

وكان الطلاب يعتمدون الحفظ الى حد بعيد · فكانوا يحفظون الى جانب القرآن الكريم وآلاف الاحاديث موطأ مالك وغيره من المصنفات والكثير من القصائد الادبية وقد أثر عن سحنون قوله « العلم صيد والحفظ قيد » ·

كما انهم كانوا يستعينون بالمدارسة والمناظرة والمذاكرة لاقرار المسائل العلمية · قال ابو العرب التميمى فى ترجمة ابى جعفر احمد بن شهرين بانه قال :« قلت يوما لشيخى ابى العباس

ابن زرزر : اخبرني بدواء للحفظ · فقال لي : او ما عرفته ؟ فلت : ما اعرفه · فقال : الدرس بالليل والمناظرة بالنهار » ·

ويقرر ابن خلدون في الفصل الثاني من الكتاب السادس من المقدمة متحدثا عن حصول الملكة العلمية « ان ايسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية · فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها ···»

وهذه هي الطريقة المثلى التي تستنجد بنشاط الطفل داعية اياه الى البحث والتفكير والكلام وتبادل الآراء مع أساتذته وزملائه · فلقد ادرك المربون التونسيون منذ زمان بعيد ان التلميذ ليس وعاء تصب فيه المعرفة صبا بل هم ارادوا تشريكه في تسيير الدرس وحل معضلاته ، وهو ما تقره الطرق الحديثة في التعليم ·

المــــدرسون

لم تكن خطـة التدريس وظيفة حكومية كالقضاء والحسبة مثلا بل كان المشائخ المدرسون يتعاطون التعليم احتسابا لـوجه الله يقصدون النفع والثـواب • فمن آنس من نفسه المقدرة على تعليـم العلـم جلس للتـدريس فحلقت حـوله حلـق الطلبـة • فبذلك كان التعليم الثانوى مجا نـا • فكـان التعليـم فى الملـة الاسلامية واجبا من باب الامر بالمعـروف والنهى عن المنكـر فهو كالجهاد فرض كفاية ان قام به البعض سقط عن الكل •

فكـان الشيوخ يعيشون من كـد يمينهم او من مساعـدة الملوك والامراء واهـل الخير من العامة •

حدث عبد الرحمان بن خالـد قال : « كنا نسمع العلم من سحنـون بمنزله فى الساحل • فصلى يوما الصبح ثـم دخل فخرج علينا وعلى كتفه محراث وبين يديه زوج بقر مقرون فقال لنا : ان غلامى حم البارحة فانا اريد ان اذهب لاحرث مكانه ثم ارجع اليكم. فاذا فرغت فاسمعكم » (رياض النفـوس للمـالكى الجزء الاول صفحة 185) •

ويؤيد هذا الخبر ما رواه يحيى بن عمر الكنانى اذ قـال : « لما قدمت من المشرق سألت عن سحنـون فقيـل لى : خـرج الى البـادية • فجئته الى الساحل • فـرايت رجـلا اشقر عليه جبـة صوف ومنديل وهو متول حرثه وشؤونه » (المدارك للقاضى عياض ج 1 ص 206) •

كما ان العلماء كانوا يتلقون احيانا الهدايا والعطايا السنية من رجال الدولة وكبار الاعيان ٠ فاليكم ما رواه حمدون النعجة متحدثا عن استاذه ابى الوليد عبد الملك المهرى شيخ اهل اللغة والنحو حيث قال : « كنا نقرأ عند المهرى يوما فقال لنا : اخرجوا بنا الى ماجل (مهرية) نتفرج ٠ وكانت داره بالقرب من سوق الاحد بالقيروان ٠ فخرجنا وجلسنا نتناظر حوله الى ان مر بنا نحو عشرين بغلا او اكثر ومعها رجل راكب ٠ فلما رآى المهرى عدل اليه ونزل ثم قال له : يقرأ عليك مولاى السلام (وهو الوزير ابو على بن حميد) وقد وجه اليك بهذه الدواب وهى محملة طعاما وعسلا وزيتا وخلا وبهذه العشرين دينارا فاقبضها » ٠

وكان الموسرون من الطلبة لا يبخلون بمالهم عن مشائخهم الذين يسمحون لانفسهم قبول الهدايا من تلاميذهم ٠ فاليكم ما حكاه الدرونى متحدثا عن استاذه المهرى السالف الذكر : « مر المهرى بناحية القيسارية عند الصيارفة ، فقام اليه فتى كان يختلف اليه ويسمع منه ، فقال له : الى اين اصلحك الله يا أبا الوليد فقال : الى سوق الطعام اشترى بهذين الدينارين قمحا ٠ فمد الفتى يده الى صرة كانت فى كمه قدمها اليه وقال : استعن بهذا ـ اصلحك الله ـ على شرائك القمح » الزبيدى ـ طبقات النحاة) ٠

لباس المشائخ المدرسين

يقول الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى بساط العميق صفحة 24 ما نصه : ويمتاز العلماء وارباب الرتب بلبس

الاسماط والشروف (؟) والفرو والسامور . وتعوض عندهم العمامة بالقلنسوة وقد يختلف شكلها من قصيرة الى طويلة .

وروى ابن ناجى فى معالم الايمام (ج 1 صفحة 232) عن ابن غانم قاضى القيروان « انه انصرف يوما من جامع القيروان الاعظم بعد صلاة الجمعة . فدخل عليه بعض اصحابه فسأله ابن غانم : حضرت اليوم الجمع ـ قال نعم ـ قال : كيف رايت اصلحك الله ـ قال رايت به سبعين قلنسوة للقضاء وثلاثمائة قلنسوة فقيه . فترجع ابن غانم وقال : مات الناس » .

وكان بعض الشيوخ يتانقون فى اللباس . فاليكم ما ذكر سليمان بن سالم متحدثا عن لباس شيخه الامام سحنون : « رأيت لسحنون ساجا كحليا (اى شانا أسود) وساجا أزرق ورداء (اى حرام) وقلنسوة زرقاء وشيا وقلنسوة تشبه الاغلبى . فاذا قعد للسماع لبس الساج الازرق والقلنسوة الزرقاء . وكان له برنس اسود يلبسه فى المطر والبرد » الجزء الاول من المدارك للقاضى عياض صفحة 206) .

وقال حبيب تلميذ سحنون : « خرج سحنون يوما وعليه برنس وكان يلبس الشاشية الطويلة » .

الفصـــل السابـع

الـرحلـة فى طلب العلـم

لما تـم الفتح بافريقية واستتب الامن بربوعها هب ابنـاء البلاد من عرب وبـربر الى طلب العلم . واذ كانت افريقية مفتقرة الى العلماء فى اوائل القرن الثانى ، اضطر الطلاب الى الارتحال الى الشرق كى يستقوا العلم من مناهله والمعرفة من معينها . وكانوا يتكبدون المشاق ويركبون الصعاب ضاربين اكباد الابل فى سبيل طلب العلم .

وكان الطلاب المغاربة اول مـا يمرون بمصر فيأخذون عن علمائها امثال : اشهب وابن القاسم والامام الشافعى . ثم يؤمون الحجاز لاداء فريضة الحج والسماع من علماء المدينة الكثرين امثال : مالك بن انس وسفيان الثورى وشيوخهما وتلاميذهما . فلذلك مال اهل المغرب الى المذهب المالكى واختصوا بـه كما بينا ذلك سالفـا .

عبد الرحمان بن زياد ، وخالد بن كبر علماء القـرن الثانى امثال : فهكذا ارتحل الى الشرق ا ربيعـة ، واسد ابن الفـرات ،

وسحنون بن سعيد ، ويحيى بن عمر ومحمد بن سحنون ، وغيرهم كثيرون .

ولما انتشر العلم بافريقية بفضل هؤلاء الرحالة الاعلام وتلاميذهم ، وبفضل من ورد على القيروان من علماء المشرق جعلت الرحلات تقل بل صار الطلبة يؤمون القيروان من كل حدب وصوب، من الاندلس والمغرب الاقصى والجزائر وصقلية وطرابلس وبرقة.

وبالرغم من ازدهار العلم بالديار الافريقية ظلت الرحلة الى الشرق مستمرة . وكان الطلبة الافارقة وما زالوا ـ يفتخرون بالاستماع الى علماء الشرق والتتلمذ لهم .

ولربما كان الداعى الى هذا الميل اسباب عديدة ، منها :

اولا : بما ان الحج الى بيت الله الحرام فريضة ، كان كثير من العلماء والطلاب يؤدون هذه الفريضة فيغتنمون فرصة وجودهم بالشرق للاستماع الى شيوخ الحجاز وغيرهم .

ثانيا : كانوا يرون من التبرك الجلوس بالحرم النبوى الشريف والتعلم فيه .

ثالثا : ما كان يشعر به المغاربة من مركب النقص ازاء الشرقيين . فلربما كانوا يعتقدون ان العلم لم يوجد الا فى الشرق وان علم اهل المغرب ابتر ناقص .

رابعا : الاقتداء بالسلف الصالح الذين كانوا تعلموا بالشرق يوم كان العلم مفقودا من افريقية .

خامسا : ان عامة الناس كانوا يـولون من تعلم بالشرق اهتماما كبيرا خصوصا اذا جاءهم مرتديا لباس اهل الشرق ويتكلم بلهجتهم •

سادسا : حب الاطـلاع والتعرف على البلدان

وبالرغم من هذه التبعية التى كان يشعر بهـا اهل المغرب تلقـاء الشرق ، نشاهد نزعـة تحريرية عـارمة تنتاب المغـرب بصفة عامة ، وافريقية بصفة خـاصة : فمـا ان استقلت البـلاد استقلالها السياسى على يد بنى الاغلـب ، حتى هبـت تنشـد استقلالها العلمى واكتفاءها الذاتى • فبـرز فيهـا علماء اجـلاء صنفوا مؤلفات نفيسة تنافس المصنفات الشرقية • ولربما الفوا فى فنون لم يسبقهم اليها اهل الشـرق • فقـد صنف اسد بن الفرات كتاب « الاسدية » فى الفقـه ، والف الامـام سحنـون مدونته المشهورة التى فـرضت نفسها على اهل الشرق والف ابن سلام كتابا فى التفسير • ومن العلوم التى سبق بهـا الافـارقة غيرهم : كتاب الحسبة واحكام السوق واداب السماسرة ليحيى ابن عمر • وآداب المعلمين لمحمد بن سحنون • كما الف احمد بن الجزار كتبا ثمينة جدا فى الطب والصيدلة والجغـرافيا والتاريخ • وظهر نحاة وادباء وشعراء لا يقلون علما عن علماء العراق • وهؤلاء امثال ابى الوليد المهرى وحمدون النعجة والحسن السبيخى وعبد الله المكفوف الخ ••• وقد اقتصرنا هنـا عـلى ذكر بعض علمـاء القرنين الثانى والثالث • ومما يدل على علو كعب هؤلاء الاعـلام امـران :

اولا : ظهور كتب الطبقات الافريقية كطبقات ابى العرب التميمى وطبقات المالكى وطبقات الخشنى وطبقات النحاة للزبيدى

ثانيا : ان الكثير من المؤرخين الشرقيين ترجموا لعلماء المغرب • وهؤلاء امثال ابن خلكان والقفطى وياقوت الحموى والسيوطى •

وكان المغاربة على تمام الشعور بوجوب ابراز شخصية أدبهم وتحريرها من التبعية • وقد حاول ابن بسام فى مقدمة كتاب « الذخيرة » ان يثبت ان للادب المغربى ذاتيته الخاصة به التى جعلته يتفوق على الادب الشرقى فتراه يندد على اهل زمانه من اجل تعلقهم باهداب الشرق ، اذ قال : «••• الا ان اهل هذا الافق (الاندلس) ابوا الا متابعة اهل الشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتاده ، حتى لو نعق بتلك الافاق غراب ، وطن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ••• فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك واخذت نفسى الجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن اهل بلدى وعصرى•••»

ولم ينفرد ابن بسام بهذه الفكرة التى تدل على حدة الصراع بين النزعة القومية فى الادب المغربى وتيار « التمشرق » (1)

---

1) ان كلمة « التمشرق » لفظة ابتكرها صديقنا الاستاذ جعفر ما جد اثناء المشادة القلمية التى دارت بينه وبين الاخ ابى القاسم كرو على صفحات جريدة العمل التونسية . وهى تدل على التعلق باهداب المشرق واثبات التبعية اليه (انظر جريدة العمل بتاريخ 29 اكتوبر و 12 نوفمبر 1965 وما بعدهما) .

آنذاك ، بل سبقه بها ابو (الوليد الحميرى الانـدلسى فى كتـاب « البديـع فى وصف الـربيع » حيث قال : ••• ولست اودعـه الا ما ذكر لاهل الاندلس فى هذا المعنى • واما اشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها ، والنظر اليها حتى ما تميل نحوها النفوس ، ولا يروقها منه العلق النفيس •••» •

وخلاصة القول هى ان الحركـة العلمية الاولى التى ظهـرت بافريقية العربية كانت مبنية على الارتحـال لبـلاد الشرق قصد الكرع من حياض العلم • ولما تكاثـر العلماء بافـريقية وبـرزت مصنفاتهم فى شتى العلوم قلت حركة الارتحال ، ولكنها لم تنقطع ابدا الى يوم الناس • ولا غرابة فى هذا حيث ان اختلاط الامم ، وتبادل الآراء ، وامتزاج الافكار ، والاختـلاف الى الاساتذة لمـا يعود بالفائدة على الطلاب • وفى ذلـك يقـول عبد الـرحمان بن خلدون فى الفصل الثالث والثلاثين من الباب السادس من المقدمة « ان الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم ، والسبب فى ذلك ان البشر يـاخذون معارفهـم واخـلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة • الا ان حصول الملكـات عن المبـاشرة والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا •••»

على اننا نرى اليوم طلابنا يقصدون جميع بلاد الدنيا طلبا للعلم ، سواء فى ذلك الشرق والغـرب ، فالعلم ضالـة الانسان ينشدها حيث كانت •

الفصل الثامن

المكتبات

لقد اعتنت الامة العربية بجمع الكتب وبتاسيس المكتبات العمومية والخاصة اعتناء لم يضاهها فيه غيرها من الامم المتقدمة. ولطالما تحدث المؤرخون عن المكتبات التى اسست فى امصار الشرق العربى والاندلس على ممر العصور . غير اننا لم نعثر على مباحث تكون خاصة بدور الكتب بافريقية العربية طوال القرون الخمسة الاولى . فما امكن جمعه من المعلومات المتفرقة فى هذا المضمار انما عثر عليه عرضا فى كتب السير والتراجم.

يبدو ان العرب كانوا مولعين بجمع مصاحف القرآن ونسخها طوال عهد الولاة الذى كان تتخلله فتن وحروب ألهت الامراء عن جمع الكتب وتأسيس المكتبات .

فلما تم الامر لبنى الاغلب واستتب الامن وعاد النظام الى نصابه صرف الامراء الاغالبة عنايتهم الى الناحية الثقافية كما ان الخواص من اهل العلم اخذوا فى جمع الكتب . فجلبت من الشرق

مصنفات كثيرة وانصرف خطاطون الى النسخ وانكب علماء على الشكل والتصحيح فاصبحت سوق الكتب رائجة رواجا ملحوظا بافريقية ابتداء من النصف الثانى من القرن الثالث •

يحدثنا ابراهيم الرشيق بانه « كان يوجد فى احدى قاعات القصر الابيض بالعباسية خزانة كتب حافلة يطالع فيها امراء الاغالبة • وكان يشرف عليها بعض فتيانهم المقربين • فلما ابتنى ابراهيم الاصغر رقادة (س 264 هـ) وحول اليها حاشيته ودواوينه نقل تلك الخزانة برمتها من العباسية الى مدينته الجديدة » (ورقات ج I صفحة 327) • وقد جلب هذا الامير الصالح من الشرق جمهرة من العلماء • وكثيرا من الكتب النفيسة (طبقات النحاة للزبيدى) • وقد نسج على منوال هذا الامير من خلفه من ملوك بنى الاغلب وهما ابنه عبد الله وحفيده زيادة الله •

وعندما اسس الفاطميون مدينة المهدية نقلوا اليها بيت الحكمة الذى كان شيده الاغالبة برقادة بما فيه من كتب وآلات رصد وادوات واعلاق نفائس • ولما انتقلوا الى القاهرة حملوا ما تجمع عندهم من تلك النفائس العلمية • فمكتبة رقادة كانت هى النواة الاولى لمكتبة الفاطميين بمصر •

ولم يقتصر العبيديون على الاستحواذ على مكتبة بيت الحكمة برقادة بل صرفوا عناية فائقة الى جلب الكتب واستنساخها وفى تاسيس المكتبات • والاجدر بالذكر منهم هو الامير المعز لدين الله الفاطمى الذى اسس مكتبة عظيمة بالمنصورية قرب القيروان وجلب اليها الكتب التى كانت بالمهدية • وكان يرسل وفودا الى

جميع انحاء العالم الاسلامى لاقتناء المؤلفات على مختلف انواعها ومشاربها وفنونها ·

ولم تبلغ المكتبات الملكية والخاصة والعامة شأنا عظيما لا يضاهى الا فى مدة الدولة الصنهاجية ·

فعلى عهد هذه الدولة ازدهرت العلوم وبلغت الحركة الادبية ما لم تبلغه فى اى عصر من عصور التمدن العربى الافريقى · وكان بلاط المعز الصنهاجي من ابهج قصور ملوك الاسلام فى ذلك العهد ·

فالمكتبة التى اجتهد المعز بن باديس الصنهاجي فى توفيرها واثرائها بانفس المصنفات كانت تضم عشرات الالآف من الكتب النفيسة ·

وعلاوة على تلك المكتبة الفاخرة كانت حركة تحبيس الكتب واسعة النطاق · وما زالت كتب ومصاحف كثيرة من مخطوطات ذلك العهد موجودة الى حد الآن بمكتبة القيروان العتيقة.

فزيادة على الامراء كانت الاميرات الصنهاجيات يحبسن الكتب التى قد ينسخنها بايديهن احيانا · فالاميرة أم ملال عمة المعز وفاطمة حاضنة ابيه وأم العلو اخته وزليخاء زوجته حبسن كثيرا من الكتب التى ما انفكت قائمة الذات بمكتبة القيروان · فهى تعد بحق آية فى جمال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتانة الرقوق ·

واليكم نص تحبيس كتب على اول صفحة من كتاب موقوف :
« مما امر بتحبيسه سيدنا سيف الله عبده المعز لدين الله المؤيد لسنة نبيه أطال الله بقاه وأدام عزه وعلاه ، على المسجد الجامع بمدينة القيروان ، طلبا لثواب الله عز وجل وابتغاء مرضاته ، على يد قاضي القضاة عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم سنة اربع وعشرين واربعمائة ».

كانت المكتبات الاميرية موجودة بالقصور واما المكتبات العامة فكانت بالمساجد والرباطات . فكان الامراء والخاصة والعامة يحبسونها احتسابا .

كان الخاصة من العلماء مولعين بجمع الكتب واستنساخها ينفقون عليها الاموال الطائلة .

فالقاضي عيسى بن مسكين المتوفى سنة 290 ه كان جماعا للكتب . حكى عنه تلميذه الكاشي فقال : « ادخلني عيسى مدة قضائه برقادة بيتا مملوءا بالكتب من جمعه وقال : كل هذه الكتب رواية لي وما فيها كلمة غريبة الا وانا احفظ لها شاهدا من كلام العرب » (الديباج لابن فرحون ص 180) .

وممن كانوا مولعين بجمع الكتب : محمد بن سطام المتوفى سنة 313 وحمدون بن مجاهد الكلبي المتوفى سنة 322 وابو العرب التميمي المؤرخ الشهير المتوفى سنة 333 .

ومن اكبر المكتبات واجلها في ذلك العصر مكتبة آل الجزار الاطباء ولا سيما خزانة احمد ابن الجزار الحكيم الشهير .

قال ابن جلجل الاندلسي : « وجدت له بعد موته اربعة وعشرين الف دينار ذهبا وعشرين قنطارا من الكتب بين طبية وغيرها » (طبقات الاطباء ج 1 ص 38) .

وقد اشتهر خطاطون بفن الخط والتزويق والتسفير والتذهيب نذكر من بينهم :

ابراهيم بن سوس الماردينى وعبد العزيز بن محمد القرشي والحارث بن مروان وابنه يحيى وعلى بن احمد الوراق « الذى كان ملازما للبلاط الصنهاجي » . وكان يميل بخطه الى اوضاع الكتابة البغدادية الراقية مع اتقانه البديع للرسم والتذهيب . وكانت تعاصره وتلازمه فى البلاط (درة الكاتبة) (معالم الايمان ج 1 ص 224). وقد وصل الينا من آثار مصحف كتبه مع درة وهو مصحف الحاضنة البديع الصنع والموجود الآن بالمكتبة العتيقة بالقيروان . واليكم نص ما على الورقة الاولى من كل جزء من اجزائه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلده على بن احمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها الله على يدى (درة) الكاتبة سلمها الله . فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار ، آمين رب العلمين . وصلى الله على النبيء محمد وسلم تسليما » . وتاريخ التحبيس شهر رمضان من سنة 410 هـ .

وكثيرا ما نرى على الكتب الموقوفة : « حبست ووقفت هذا الكتاب على من يقول بقول مالك واصحابه » .

وقـد اطلعنا صديقنا السيد عثمان جراد حافظ المكتبة العتيقة بالقيروان على نماذج رائعة من المصنفات والمخطوطات التى يرجع تاريخها الى العهد الذى نؤرخه • فامكننـا ان نطلـع عـلى صحف مكتوبة فى العهد الاغلبى بالخط الرقعي الجميل عـلى الرق الازرق البديـع • كما شاهدنا مصاحف عجيبة الخط والتزويق والتسفير والتجليد يرجع اغلبها الى العهد الصنهاجى •

لم تكن الاسفار ضخمة فى حد ذاتها وانما كانت مجزأة الى كتب او اجزاء لا يتجاوز الواحد منها 24 ورقة من الرق الملون او الابيض، والورقة مستطيلة الشكل يتراوح طولها بين 22 و30 صمم وعرضها بين 15 و 20 صمم ولربما وضعت تلك الاجزاء او الكتب فى «ربعة» من خشب مغشاة بالجلد •

نحن لا نعلم بالضبط أكان للمكتبات شكل معمارى خـاص كما هو الشأن بالنسبة للمكتبات الرومانية (انظر مـا تقدم) • واما الذى نعلمه هو ان المكتبات كانت موضوعة فى حجرات خاصة بها وكان عليها حافظ يسمى الخازن • ويغلب على الظن ان الكتب لم تكن مرتبة فى رفوف كما هو الحال اليوم وانما كانت تصان فى قماطر مـرتبة حسب فنونها • كما انـه لم يمكن الى حـد الآن العثور على مكان المكتبة القيروانية بالضبط • واما المكتبة الحالية فهى عبارة عن المعبر الذى يوصل مقصـورة الجامـع بالخارج وهى ضيقة الارجـاء وقليلة الكتب • وقد احصى السيد البهلى النيـال محتويات المكتبة العتيقة على ما هى عليه اليوم • كما ان السيد ابـراهيم شبوح نشر « سجلا قـديما لمكتبة جـامع القيروان » القاهرة 1957) اثبت فيه ان اقدم وثيقة مؤرخة هى نص التحبيس

الذى كتبه بخطها (فضل) مولاه ابى ايـوب احمد سنـة 295 هـ وقـد اكتشف ذلك فى الجزء الحادى والاربعين من كتاب المعجزات) •

كانت أدوات الكتابة متنوعـة وكثـيرة يصنـع اغلبهـا بالقيروان • فكانوا يكتبون على جلود الخرفان المصقولة او عـلى البردى المصنوع من قصب خاص وكان أجوده ما يجلب من مـدينة الاسكندرية • كما اهتدوا فيما بعـد الى صنع الورق من الخـرق البالية • وكانت النساء هن اللواتى يصنعن هذا الـورق مثلمـا يصنعن اليوم ورق الملصوقة تماما • وبعد ان يجف الورق تمر عليه غيراء لزجة تزيده صقالة ومتانة •

واما الحبر فكان يصنع من الصمغ أو الصـوف او من مـواد كيمياوية • وكانت المحابر تصنع من الخزف او الزجاج فى شكـل مخروطى او من النحاس • وقد رأينـا بمتحف الربـاط بالمنستير نموذجا رائعا من المحابر يـرجع عهده الى العصر الفاطمى • وهو عبـارة عن محبرة وكنانة لوضع الاقلام واناء لوضع الرمل الملـون الصالح لتجفيف الكتابة فى اسرع وقت • كـل ذلك مصنوع من النحاس وملحوم مع بعضه • وقد اطلعنـا صديقنا السيد الشاذلى العلانى القيروانى عـلى مخطوط سقطـت منـــه الاوراق الاولى يتحدث خاصة عن ادوات الكتابة فى العصر الصنهاجى • وقد صور منه استاذنا السيد عثمان الكعاك نسخـا عديدة اودعهـا المكتبة القومية بتونس • وكم نحن نود ان تنجـز اللجنـة الثقـافيـة بالقيـروان طبـع هذا الكتـاب الثمين برا بالـوعد الذى قطعته على نفسهـا •

الفصـــل التـاسـع

الـربـاطــات

من أهم مـراكز الثقافة بافريقية العربية وأنشطها حـركة علمية الرباطات ٠

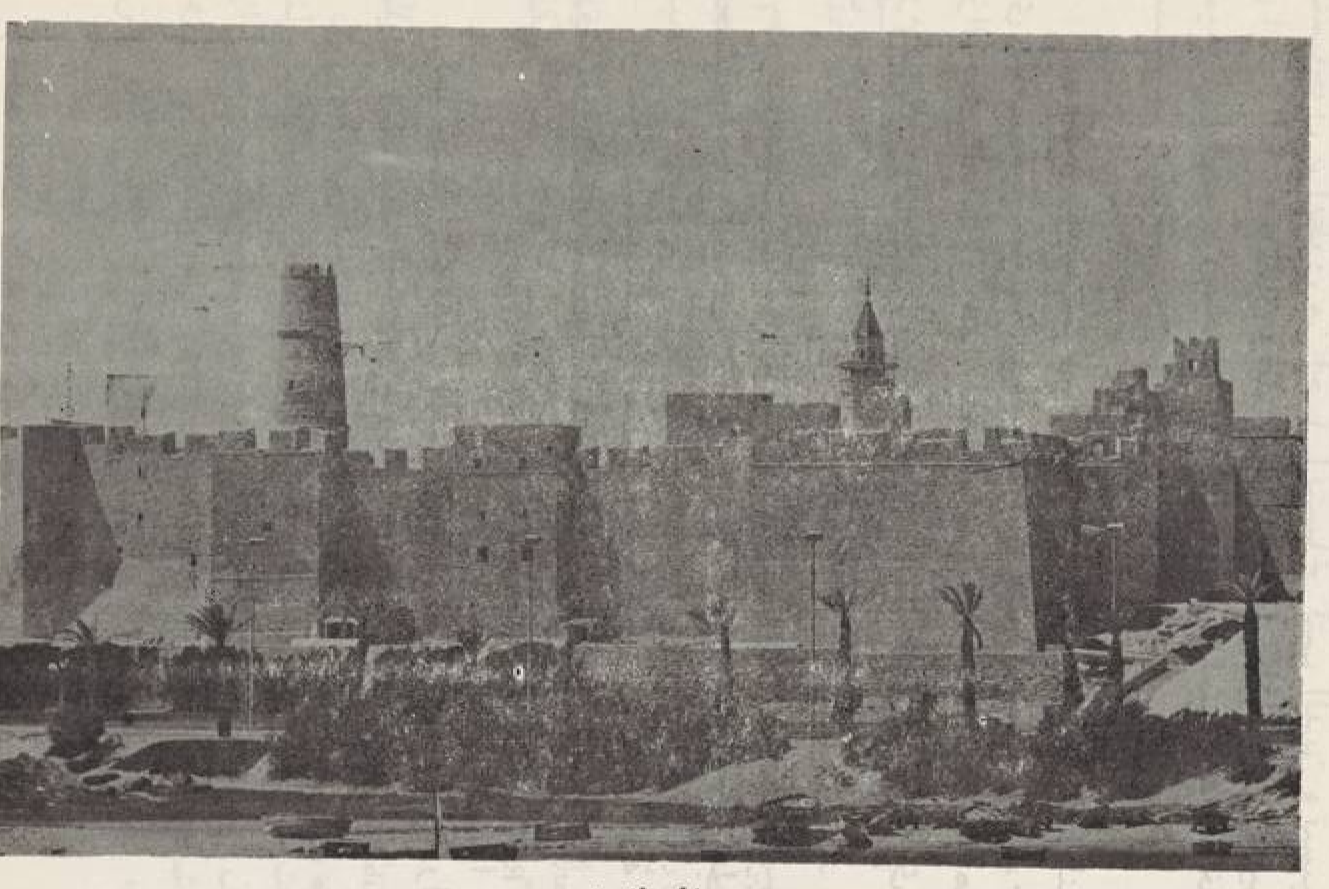
ما هو الــربــاط ؟

الــرباط ثكنــة عسكرية محصنة ذات صحن واسع تحيط به غرف وقد يكون على طبق واحد او عـلى طبقين تعلـوه صومعة مستديرة للآذان وخصوصا لمراقبة السواحل اتقاء الغارات البحرية الموجهة من طرف اساطيل الروم ٠ ان الـرباط حصن دفـاعى اولا وبالذات يرابط فيه من حبسوا حياتهم على الجهاد فى سبيل الله. فلذلك نرى جميع الاربطة مبنية عـلى سواحـل البحر ٠ فكـان المـرابطون يقيمون فى الرباط يقضون يومهم او سواد ليلهم فى العمل او فى العبادة ، وكانت الاربطـة تتصل ببعضهـا بـواسطة العلامات النارية او بواسطة الحمام الزاجل ٠ وكان ازاء كل رباط للرجال رباط للنساء يتعبدن فيه ويعـن الرجـال فى الاشغـال الفلاحية وغيرها ٠

كما ان الرباط مدرسة من الدرجة الثانية يؤمها العلماء والطلبة من كل حدب وصوب ۰ فكان الامام سحنون ويحيى بن عمر ومحمد بن سحنون والامام المازرى وغيرهم من العلماء يقضون شهرا من العام فى الرباط حيث يدرسون العلم احتسابا ۰ ومشاهد القبور التى وجدت بالاربطة لدليل واضح على مرابطة العلماء بها ۰

وكان المرابطون يقومون بعدة أشغال ثقافية مثل صنع الورق والحبر وينسخون المصاحف وكتب الفقه والحديث. فالمؤلفون يحبسون تصانيفهم بخط ايديهم على الاربطة لتكون منها النسخة الام التى تنسخ عليها نظائر ويرجع الى نصها الصحيح عند الاشكال – يتولى المرابطون نسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم بالمجان ۰ ففى كل رباط مكتبة جدارية مفرغة فى طاقات من الحائط بها النسخ الامهات والمولدة . ويمكن لمن يزور رباط المنستير ان يشاهد مكتبته وهى عبارة عن غرفة كبيرة حولها مصاطب مبنية يجلس عليها المطالعون ، وفى جوانبها طاقات مفرغة فى الحائط يوضع فيها الكتب ۰ وهذه الحركة الثقافية هى التى تفسر لنا توافر المصنفات المؤلفة فى العصر الذى نؤرخه ووجودها بالمغرب العربى اكثر من وجودها بالمشرق ۰

وبالجملة « فان الانسان فى ذلك الوقت يتطوع بالمرابطة على مدة هو حر فى تعيينها ، فاذا عينها صارت لزاما عليه ۰ فالاستاذ يرابط من اجل التعليم احتسابا لوجه الله والطبيب يرابط من أجل مداواة المرضى ، والبريدى من اجل تنظيم البريد،



رباط المنستير

والنساخون يرابطون من اجـل انتساخ كتب الدين وتيسيرهـا بين ايدى الناس بالمجان وهلم جرا ... حتى اذا جـاء النفير هب الجميع الى الحرب » (شجرة النور الـزكية للشيخ محمد مخلـوف المنستيرى . تونس 1935) .

ان اقدم رباط شيده العرب بافريقية هو رباط المنستير الذى بناه الامير هرثمه بن أعين والى القيروان سنة 181 هـ. وهو ما زال قائم الذات الى هذا اليوم . ومن الاربطة التى نشاهدهـا اليوم رباطا سوسة : الرباط الاعلى (برج خلف الفتى الذى صار الآن متحفا وبه المنارة) . والرباط الاسفل (القصر) .

وقد عنيت حكومة الرئيس بـورقيبة بترميم هذه الرباطات وبتحسينها حتى أصبحت تحفا اثرية على غاية من الروعة والجمال .

وقد افرد المستشرق الفـرنسى جورج مرسى دراسة ممتعة ومدققة للرباطات وللدور الذى كـانت تقوم بـه (G. Marçais notes sur les Ribats de Berbérie Mél. Basset II PP : 400-429).

كما خصص المهندس المعمارى الكسنـدر ليـزين دراسـة معمارية مستفيضة لربـاطى سوسة والمنستير (Le Ribat de Sousse suivi de notes sur le Ribat de Monastir. Imp. La Rapide — Tunis 1956) .

الفصل العاشر

بيت الحكمة

لقد تطورت الحركة العلمية على عهد الدولة الاغلبية تطورا يدل على ما للافارقة من القدرة على الخلق والابتكار • فلم يقنعوا بالتعليم الابتدائى والثانوى والعالى بل تفرغ الكثير منهم الى الاختصاص فى الدرس والتأليف فى شتى ضروب العلوم من فلسفية وحسابية وفلكية وطبية وغيرها من الفنون الموصوفة بالرياضية •

ولهذا الغرض اسس الامراء الاغالبة اول جامعة افريقية للعلوم اطلقوا عليها اسم « بيت الحكمة » على غرار بيت الحكمة الذى اسسه العباسيون ببغداد •

من المتأكد ان هذه المؤسسة العلمية من مآثر ابراهيم الثانى الاغلبى والدليل الاول على ذلك ان احدا من الاخباريين لم يتحدث عن بيت الحكمة قبل عهد ابراهيم الثانى • والدليل الثانى هو ان جميع المؤرخين وأصحاب التراجم متفقون على ان هذا الامير كان شديد الولع بالعلوم الرياضية والحكمة الامر الذى حمله على انشاء بيت الحكمة • واما مقر بيت الحكمة الاغلبى فلم يكن فى

مدينة القيروان بل بمدينة رقادة التى ابتناها ابراهيم الثانى سنة 264هـ 878م • على انه لم يوجد بمدينة القيروان مكان يحمل اسم بيت الحكمة •

ليست لنا معلومات مدققة عن بيت الحكمة وعما احتواه من كتب وآلات ونفائس • ولربما مرد ذلك ما كان من النفرة بين علماء بيت الحكمة والمدرسة القيروانية السنية • فلهذا السبب اغفل رجال التراجم السنيون التحدث عن بيت الحكمة الاغلبى •

والغالب على الظن ان بيت الحكمة كان جزءا من قصر رقادة يحتوى على عدة غرف او مجالس اعد بعضها للمكتبة وبعضها للنسخ وبعضها للدرس والمناظرة وبعضها للرصد الخ •••

كانت ارض المجالس مفروشة بالحصر واللباد والبسط القيروانية الشهيرة . واما الامير فكان يجلس على سرير يشرف منه على المناقشات والمناظرات التى كانت تدور بين العلماء بمحضره .

وكان العلماء والطلبة يختلفون الى بيت الحكمة لمطالعة المؤلفات او لنسخها •

وكان يشرف على نظام الدار قيمون مرتبون مهمتهم السهر على حراسة ما فيها ومناولة المطالعين ما يحتاجون من الكتب • ويرأس هؤلاء القيمين ناظر يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » واول من تولى هذه الخطة ابو اليسر ابراهيم الشيبانى •

كان الامراء الاغالبة يوفدون فى كل عام سفارة الى البلاط العباسى لتجديد العهد ولرفع الخراج السنوى (مقدمة ابن خلدون ص 171) • وكانوا يكلفون رئيس الوفد بان يشترى لهم انفس الكتب الموضوعة والمترجمة وبان يجلب الى رقادة فطاحل علماء ذلك العصر • فلذلك وجدت برقادة مصنفات من جميع الملل والنحل وفى مختلف العلوم والفنون • والى جانب ذلك وجد علماء اجلاء نازحون من جميع أقطار العالم الاسلامى •

وعلاوة على ذلك فان الامراء الاغالبة وخاصة الثلاثة الاخيرين منهم كانوا يحسنون اللغة اللاطينية التى كانت متداولة فى افريقية على عهدهم • فلذلك نراهم يجتهدون فى ترجمة جمهرة من الكتب المحررة باللغة اللاطينية (طبقات علماء افريقية للخشنى • الجزائر 1332 هـ 1914 م صفحة 162) • وما يؤيد هذا ان (حسن الوزانى Léon l'Africain) ذكر فى رحلته المشهورة انه رآى فى بلاد افريقية ترجمة كتاب (بلينوس Plinus) الرومانى فى علم النبات باللغة العربية • ويوجد الآن بمكتبة جامع القيروان نسخة من ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الأمم القديمة » نسب وضعها الى القديس المسيحى (يرونيم الرومانى Saint Gérome) المتوفى سنة 420 هـ (يراجع الكتاب التذكارى للمستعرب ليفى بروفنسال باريس 1962 صفحة 175 وما بعدها) •

وقد حدثنا الخشنى عن المناظرات التى كانت تدور ببيت الحكمة بين المتكلمين من أهل السنة وغيرهم من الفلاسفة فى مجالس رقادة بمحضر الامراء (طبقات علماء افريقية • الجزائر

1914 ص 120 ـ 121) • فمن يطالع تلك المناقشات الحـادة احيانـا يعلم ما كانت عليه الحركة الفكرية من العلو والتحرر فى آن واحد وما كان عليه الامراء الاغالبة من التسامح فى شؤون العقل •

ومن بين العلمـاء الذين اشتهروا فى بيت الحكمة الاغلبى تخص بالذكر الامـراء الاغالبة الثلاثة الآخرين الذين اجتهدوا فى تاسيسه وسهروا على اعداده والقيـام بنفقاتـه وحرصوا طـوال مدتهم على بقـائه حيا ناميا الى ان بلغ درجة الازدهار واتى اكلـه الشهى النافع • وهم ابـراهيم الثـانى (261 ـ 289 هـ) وعبد الله الثانى المتوفى سنة 290 وزيادة الله الثالث الذى تخـلى عن الملك سنة 296 هـ •

كما يحسن ان نذكر وزيرهم عبد الله بن الصانع والحكيم البغدادى اسحاق بن عمران الذى علم الكثير من الافريقيين الفلسفة والطب والف كتبا كثيرة لم يصلنا منهـا الا كتـاب المـالنخـوليـا (La mélancolia) ـ والجدير بالذكر ايضا اسحـاق بـن سليمـان الاسرائلى المصرى وهو استـاذ الطبيب الشهير احمد بن الجزار• وقد ألف اسحاق جملة من الكتب بالعـربية وبالعبرانية ـ وممن اشتهروا فى بيت الحكمة آل الجزار ـ واما مدير بيت الحكمةفكان ابراهيم بن الشيبانى وهو بغدادى من تلاميذ الجاحظ وابى تمام والبحترى • وكان يدرس الادب ببيت الحكمة وله مؤلفات كثيرة فى الادب ـ ولا ننسى من بين فلاسفة بيت الحكمة ابابكر القمودى المشهور بالفيلسوف واسماعيل بن يوسف الملقب بالطلاء المنجم و الفقيه المتكلم سعيد بن الحداد ،وغيرهم كثيرون •

لما انقرضت دولـة بنى الاغلب سنة 296 هـ آل بيت الحكمة الى بنى عبيد الفاطميين الذين انتزعوا منهم الملك • فأصبح بيت الحكمة مركز اشعاع للدعـوة الاسماعلية • ولمـا أنشأ عبيد الله المهدى مدينة المهدية سنة 308 هـ نقل اليها مـا كان ببيت الحكمة من كتب وأثاث وآلات • فافـل نجم رقادة الى الابـد • وسكنت حركة بيت الحكمة وتعطلت رسالته الثقافية بل حولت الى حركة اسماعلية فهجره اهـل السنة و نفروا منه • فاصبح اثرا بعد عين بعـد ان اشع بعلومه وفلسفته طيلة اربعين عاما •

لئن انقرض بيت الحكمة التونسى حسا فان اشعة علومـه الساطعة لم يخبأ سناها على مدى الدهور ذلك ان رواده وخريجيه تفرقوا فى أطراف البلاد وحملوا مشعله الى الآفاق المغربية البعيدة مثل مدينة فاس وقرطبة وصقلية وايطاليا ومنها الى اروبا •

فبيت الحكمة هو الذى اوجـد النواة الاساسية للمدرسة الطبية القيروانية الشهيرة التى انتشر تأثيرها مدة ثلاثة قرون متوالية •

(Voir : En souvenir de la Médecine Arabe par le Dr. Slaiem Ammar. Imp. Bascone et Muscat - Tunis 1965 p. 58 et p. suivantes).

الخلاصة

ان طرق التعليم وأساليبه التى كانت متوخاة فى مختلف المعاهد بافريقية العربية تبدو لنا اليوم بسيطة وبدائية ومنافية للمبادىء البيداغوجية احيانا • فلم تكن مركزة على دعائم نفسانية متينة فى الغالب بل كانت تعني بالمادة العلمية اكثر من اعتنائها بالمربى • فلذلك كانت تعتمد الحافظة اعتمادا كبيرا ينطبق عليها قول ابن الوردى صاحب اللامية المشهورة :

قيمة الانسان ما يحسنه اكثر الانسان منه أو أقل •

كانت الطريقة الالقائية هى الرائجة فى ذلك العصر • فكان الشيخ يلقى مروياته او موضاعاته على الطلبة وهم يدونون فى رقوقهم وكنشاتهم ما يتلقونه منه ثم يعرضون عليه ما دونوه للتصحيح والاجازة • كما انهم كانوا يتوخون المناظرة والمساجلة احيانا •

ومع ذلك فان هذه البيداغوجية قد انجبت ـ على علاتها ـ علماء فطاحل ومفكرين نبغاء ازدهرت بفضلهم المعرفة طوال الحقبة التى نؤرخها وما بعدها •

ان افريقية التى ظلت مهدا للحضارة على عهد قرطاجنة ، ومنبثقا للمدنية والعلوم والادب خلال العصر الرومانى، استأنفت مواصلة رسالتها الحضارية والانسانية فى العصر العربى •

فكانت موطن اشعاع للمعرفة طيلة العهد الاغلبى والفاطمى والصنهاجى غمر سنا علومها بلاد المغرب بما فى ذلك الاندلس وصقلية وايطاليا ، ومنها تسرب الى اروبا ، فكان احد اسباب نهضتها ٠

ان المؤلفات التى لا يحصى لها عديد والتى وضعها الافارقة فى جميع العلوم والفنون خلال العهد العربى لدليل واضح على نجاعة طرق التعليم واساليبه المتوخاة فى ذلك العصر ٠ وهى لجديرة بالبحث والاستقصاء حتى تستجلى معالمها وخفاياها ٠ فما توصلنا اليه فى بحثنا هذا الموجز الا قطرة من بحر ٠ وعلى الاجيال الصاعدة ان تنكب على دراسة هذا الجانب الهام من حضارتنا الذى ما انفك غامضا وفى حاجة ماسة للدرس والاستقصاء ٠

الفصل الحادى عشر

ابرز رجال التربية بافريقية الاسلامية

عبد الرحمن بن زياد

ابو البقاء عبد الرحمن بن زياد بن انعم المعافرى الافريقى ، ولد سنة 64 للهجرة ، فعد لذلك اول مولود فى الاسلام بعد فتح افريقية وكان ابوه زياد من وجوه الجند العربى الذى قدم مع عقبة للمرة الثانية . رحل عبد الرحمن للمشرق للتفقه فى الدين فروى عن جماعة من التابعين ، وصاحب زمانا أبا جعفر المنصور العباسى قبل خلافته وزاولا العلم جميعا ، ثم رجع الى افريقية وولى القضاء العام بها وانتفع به جم غفير ، وعاد مرة اخرى للعراق واجتمع بابى جعفر المنصور وقد ارتقى للخلافة فعرض عليه المقام ببغداد فلم يقبل ، فسيره قاضيا على افريقية صحبة محمد بن الاشعث وبقى عبد الرحمن على القضاء الى ان توفى فى رمضان سنة 161 على عهد الامير يزيد بن حاتم ودفن رضى الله بمقبرة باب نافع من القيروان . ومن شعره يتشوق الى مسقط رأسه مدة اقامته بالعراق .

ذكرت القيروان فهاج شوقي   واين القيروان من العراق

مسيرة اشهر للعير نصا   وللخيل المضمرة العتاق

فبلغ انعما وبنى ابيه   ومن يرجى لنا وله التلاقى

فان الله لو خلى سبيلى   لجد بنا المسير الى مزاق

ومن منثور كلامه وهو يدل على عفته وورعه قوله : « اذا رأيت الهدية دخلت دار القاضى فاعلم ان الامانة قد خرجت منها ».

أسـد بن الفـرات

ابو عبد الله اسد بن الفرات بن سنان ـ مولده سنة 142 ـ وقدم ابـوه القيروان مع الامير محمد بن الاشعث • سمع اسد بتونس من على بن زياد ثم ارتحل الى المشرق فى طلب العلم سنة 172 ، فلقى من اصحاب ابى حنيفة القاضى ابا يوسف ومحمد بن الحسن وزفر ، واخذ عنهم وعن امـام دار الهجرة مـالك بن انس « الموطأ » وعن عبد الرحمن بن القـاسم ، وعليـه دون كتـابه « الاسدية » نسبة الى اسمه • ورجـع أسد الى افـريقية فتصدى للتدريس ونشر العلم فسمع منه خلق كثير منهم سحنون وغيره • وفى سنة 204 ولى اسد قضاء القيروان وبقى بهذه الخطة الى ان عزم زيـادة الله بن الاغلب على غـزو صقلية ، فطلب حينئذ منـه أسد الاذن فى الخروج الى الغزو كأحد الاجناد ، فعينه اميرا على الجيش، فقال أسد « اصلح الله الامير ابعد القضاء والنظر فى الحلال والحرام تعزلنى وتولينـى الامـارة ؟ » فقال له زيـادة الله : « انى لم اعزلك عن القضاء وقد وليتك الامـارة وهى اشرف من القضاء ، فانت قاض أمير » وخرج أسد فى عشرة آلاف مقاتل الى ثغر سوسة وقد خرج لتشييعه الامير واهل العلم ووجـوه الناس ولمـا ركب أسد ونشرت البنود والالويـة وضربت الطبول وصهلت الخيـول ورأى اعيان الامة مصطفة من حوله عـلى الرصيف وقف وقـال بأعلى صوته : « لا اله الا الله وحده لا شريك له • يامعشر المسلمين • ما ولى لى أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفى هذا قط ، وما رايت ما ترون الا بالاقلام • فأجهدوا انفسكم وأتعبوا ابدانكم

فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة ».

ثم اقلع الاسطول وحل بساحل صقلية وقاتل أسد وكابد المشاق وقد تمادت عزيمته وثباته حتى فتح من الجزيرة مواضع كثيرة .

وتوفى اسد من جراحات كثيفة اصابته فى حصاره لمدينة (سرقوسة) عاصمة صقلية ، وذلك فى شهر ربيع الثانى 213 ودفن بمحل استشهاده رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجازاه عن الاسلام والمسلمين خير جزاء واوفره .

الامــام سحنــون

ابــو سعيد سحنــون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، ولد بالقيروان سنة 160 وتلقى العلم بافريقية عن على بن زياد وأسد ابن الفرات ، ثم توجه فى طلب العلم الى المشرق سنة 188 ، فزار مصر والحجــاز والشام ، واخذ الفقه عن فطاحل تلك الامصار مثل عبد الرحمن بن القاسم وابن الماجشــون ووكيــع بــن الجــراح وغيرهم ، وعاد الى بلده سنة 191 ، فاظهر بها علم اهل المــدينة ومذهب مالك بن أنس • وهو اول من ركزه بافريقية تركيزا ثابتا. ولما اشتهر سحنون وذاع صيته راوده الامير ابو العبــاس احمد بن الاغلب حولا كاملا على خطة القضاء حتى قبل منه الولاية سنة 234 • على شروط منها اطــلاق يده فى تنفيــذ الاحكــام الشرعية عــلى اقاربه من بنى الاغلب ورجال دولته ، ومنها الــزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مــع الخصوم ، فقبل احمد الشروط كلها وانتصب سحنــون للقضاء وباشر الحسبــة والمظــالــم بنفسه ووفى العدل حقه الى ان لقب (بسراج القيروان) •

ولم يمنع سحنون مباشرة الاحكام ، من بث العلم ونشره فكان يحضر مجلسه بجامع عقبه تــلامــذة مــن جميــع الاقطــار المغربية والاندلس يروون عنه أصول الدين وفروعه ، ولقد عدله نحو سبعمائة رجل بالافاق تخرجوا عليه •

وألف سحنون كتابا عظيما سماه « المدونة الكبرى » جمع فيه مسائل الفقه على مذهب مالك بن أنس .

وتوفى يوم 6 رجب سنة 240 فى دولة محمد بن الاغلب ، ودفن بالقيروان وضريحه رحمه الله مشهور للخاص والعام .

وسمعة هذا الحبر ذائعة فى العالم الاسلامى شرقا ومغربا .

محمد بن سحنــون التنــوخي

اول عربى كتب فى التربية هو محمد ابن الامــام سحنــون التنوخى القيروانى المولود بالقيروان سنــة 202 هجــرية والمتوفى بالساحل (سقانص) سنة 256 وقد دفن بجانب ابيه بالقيروان ·

تلقى محمد بن سحنــون تعلمــه الابتــدائى والثــانــوى بالقيروان فسمع عن أبيه وعن الــراوية موسى الصمادحى وعن عبد الله بن ابى حسان اليحصبى تلميذ مالك. وجريا على عادة ابناء جلدتــه ارتحل محمد الى المشرق ثم رجع الى القيروان مملوء الوطاب فانتصب للتدريس وقد سمع عنه علماء كثيرون ·

الف محمد بن سحنــون كتبــا كثيرة احصى منها الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ما يربــو عــلى العشرين مصنفــا فى مختلف العلــوم (كتــاب آداب المعلمين صفحة 14) ·

ومن بــين الكتب التى دونهــا محمد بن سحنون « كتــاب آداب المعلمين » الذى نشرتــه اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العــربية سنــة 1348 هـ 1929 م (مطبعة العرب · تونس) ·

وقد قدم الاستاذ عبد الوهاب لهذا الكتاب مقدمة ضافية وعلق عليه تعليقات مدققة جــد مفيدة

وكان عثر المؤرخ التونسى عــلى مخطوط هذا الكتــاب فى خزانة المرحوم بلحسن النجار مع مخطوطــات اخــرى « والنسخة

المشار اليها ترجع الى القرن الثامن الهجرى مكتوبة بخط نسخى افريقى جيد ودقيق جدا يقع فى اثنتى عشرة صفحة •»

لقد تعرض الكثير من القدامى الى هذا الكتاب ونسبه عبد الرحمن بن خلدون خطأ الى محمد بن ابى زيد (المقدمة ـ الفصل 32 من الكتاب السادس) •

يشتمل « كتاب آداب المعلمين » على عشرة ابواب نستعرضها على التوالى :

1) ـ ما جاء فى تعليم القرآن العزيز •
2) ـ ما جاء فى العدل بين الصبيان •
3) ـ باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى •
4) ـ ما جاء فى الآداب (العقاب)
5) ـ ما جاء فى الختم (من حيث الاجر)
6) ـ ما جاء فى القضاء بعطية العيد •
7) ـ ما ينبغى ان يخلى الصبيان فيه (العطل المدرسية)
8) ـ ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان •
9) ـ ما جاء فى اجرة المعلم •
10) ـ ما جاء فى اجرة المصحف (1)

---

1) لزيادة التفصيل انظر المقال الذى نشره المؤلف بالعدد 34 من النشرة التربوية للتعليم الابتدائى . نوفمبر 1964 .

ابـو اليسـر الشيبـانى

ابراهيم بن محمد الشيبانى، يكنى بأبى اليسر ويعـرف بالرياضى « الكاتب اصله من بغداد وبهـا نشأ وقرأ على جلـة من محدثيها وفقهائها ، وتتلمذ الى كبار أدبـاء عصره كالجاحظ ، والمبرد ، وثعلب ، وابن قتيبة واخـذ عنهـم مصنفاتهم ، ولقى مس علية الشعـراء : ابا تمـام ، والبحترى ، وعلى بن الجهم وغيرهم وروى عنهم دواوينهم مباشرة ، وجالس من الكتاب المشاهير : سعيد بن حميد ، وسليمان بن وهب ، واحمـد بن أبى طـاهـر وسواهم • ولما اكتمل ادبه تاقت نفسه الى الترحـال فقصـد اولا الاندلس على طريق البحر ، ونزل على اميرها محمد بن عبد الرحمن الاموى بقرطبة ، وطاف فى انحاء الجـزيرة الاندلسية ، ثـم ركب البحر الى افريقية وقصد اميرها ابـراهيم الثانى فأكرم وفـادته واتخذه لرئاسة ديوان الرسائل ، ومن ذلك الحين استقر الشيبانى بافريقية واتخذها دار قرار ، وباشر وظيفته بخبرة زائدة ووقار ، واستمر على وجاهته ايام عبدالله الثـانى ، فلما آلت الامـارة الى زيادة الله الثالث ترقت به الحال الى رئـاسة « بيت الحكمة » مـع المحافظة على زعامة ديوان الانشاء ، ولم يزل محل العناية الكاملة فى مناصبه العالية ، يفيد ويـدرس الادب الى ان انصرمت دولـة الاغالبـة •

وروى عنه الادب ووسائل الترسل عدد من ابنـاء افريقية منهم : ابنه يزيد ، وابـو جعفر الكـاتب ، وعبد الله الصانـع ولا سيما تلميذه المختص بصحبته ابو سعيد الصيقل الآتى ذكره •

ولم يزل ابو اليسر بالمنزله الرفيعة الى ان ختمت انفاسه يوم الاحد 15 جمادي الاولى من سنة 298 هـ (يناير 911 م) وله من العمر خمسة وسبعون عاما ، ودفن بمقبرة باب سلم بالقيروان.

ابـو الـوليـد المهـرى

أبو الوليد المهرى شيخ اهل اللغة والنحو والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدم فى زمانه عليهم ، وصفه أبوبكر الزبيدى الاندلسي في طبقاته ، فقال : « كان من احفظ الناس لانساب العرب واشعارها ووقائعها وايامها ، وكانت اشعار الجاهلية المشروحة تقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها ، فلما دخلت المشروحات من المشرق نظر طلبة العربية والنحو فيها وفيما كانوا رووا عنه منها فلم يجدوا فى شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح، ولا وجدوا عليه فى روايته وتفسيره شيئا من الخطأ ، وكان لقى جماعة من العلماء بالعربية والمعروفين بالرواية منهم أبو مالك ابان بن الصمصامة ابن الطرماح الشاعر الافريقى ، وعياض بن عوانة الكلبى ، وقتيبة النحوى وكثير من الاعراب منهم أبو المنيع الاعرابى وغيرهم . »

عمر المهرى طويلا وتوفى خلال شهر رمضان سنة 256 هـ 870 م . اى فى اواسط دولة بنى الاغلب .

سعيد ابن الحداد

سعيد بن محمد بن صبيح شهر بابن الحداد الغسانى ، ابو عثمان

من كبار المتكلمين الافريقيين فى عصره ان لم نقل اشهرهم واعلمهم واذكاهم ، درس فى اول امره العلوم الدينية وأخذ عن الامام سحنون وغيره ، ثم مال بكليته الى العلوم الفلسفية واتقن فن الكلام والجدل اتقانا كاملا حتى أصبح لا ينازعه فيه منازع، وتتلمذ له جماعة كبيرة من صغار معاصريه واقتدوا بسلوكه وآرائه ، فكان هو رأس المدرسة الكلامية بالقيروان ، ولم يتقيد مدة حياته بتقليد مذهب من المذاهب ، قال الخشنى عند التعريف به :

« كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد ، لا يتحلى بتقليد احد العلماء ويقول : ـ انما ادخل كثيرا من الناس الى التقليد نقص العقول ودنا الفهم ـ وكان يقول : كيف يسع مثلى ممن اتاه الله فهما ان يقلد احدا من العلماء بلاحجة ظاهرة (1) .

ولابى عثمان مؤلفات كثيرة فى الجدل والرد على المخالفين من اهل المخارق والزندقة ، منها كتاب « المقالات » رد فيه على اهل

---

1) كتاب رياض النفوس ج 2 ص 32 (خط)

المذاهب اجمعين ، وكتاب « ايضاح المشكل » ـ وكتاب « الامالى » وكتاب « الاستواء » وكتاب « الاستيعاب » وغير ذلك ·

مولده فى سنة 219 هـ (834) م وكانت وفاته بالقيروان في ذى القعدة من سنة 302 هـ (مايه 915 م) ودفن بمقبرة باب سلم، وقبره معروف ·

وبالجملة فان سعيد بن الحداد كان فى وقته رأس « المدرسة الكلامية » فى افريقية التونسية ، والآخذون عنه ، والمقتدون بمذهبه وآرائه من ابناء البلاد لا يعدون كثرة ·

ابن الجزار الطبيب

أبو جعفر أحمد ابراهيم بن أبى خالد يعرف بابن الجزار الطبيب • ولد بالقيروان أوائل القرن الرابع ونشأ فى عائلة اشتهر أفرادها فى الطب • وتلقى أحمد علوم اللغة والفقه ثم تخرج فى الفنون الرياضية عن كبير الاطباء بافريقية (اسحاق ابن سليمان الاسرائلى) حتى برع وفاق استاذه ، وقد يعلو الفرع أصله •

قال الحكيم ابن جلجل : « كان أحمد قد أخذ لنفسه مأخذا عجيبا فى سمته وهديه ولم يحفظ عنه بالقيروان زلة قط ولا أخلد الى لذة ، وكان يشهد الجنائز والاعراس ولا يأكل فيها ، ولا يركب قط الى احد من رجال الدولة ولو الى السلطان » وذلك لنزاهة نفسه وانقطاعه لعلمه وعمله وكان له دكان يقبل فيه العائدين ويعالج فيه المرضى • وعلا صيت ابن الجزار وذاعت شهرته بالافاق شرقا ومغربا • وكانت وفاته بالقيروان سنة 389 عن سن تناهز الثمانين عاما قضاها فى النفع العام وخدمة الانسانية • وترك ابن الجزار تآليف معتبرة ضافية وضعها فى فن الطب ، منها كتاب فى علاج الامراض سماه « زاد المسافر وقوت الحاضر » وكتاب طب الفقراء والمساكين » وآخر « فى الذم والتحذير من اخراج الدم لغير حاجة » وكتاب « سياسة الصبيان وتدبيرهم » وله فى التاريخ والاخبار مصنفات جليلة منها « التعريف بصحيح التاريخ »ومنها « اخبار الدولة الفاطمية »

وغير ذلك من المصنفات العلمية التى يطـول تعدادهـا ، يكفيـك شاهدا انه وجد فى مخلفه خمسة وعشرون قنطـارا من الكتـب الطبية كلها بخط يده .

ولقد اعتنى علماء اروبـا من قـديم الزمـان بتآليف ابن الجزار وقدروها حق قدرها ، فترجموا جانبا وافرا منها الى اللغـة اللاطينية وغيرها لاهمية ما احتوت عليه من الافـادات الجمـة . ولذلك يحق لنـا الافتخار بهذا الطبيب التونسى الذى رفع ذكر بلاده بمآثره الجليلة .

أبو الحسن القابسي

هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بالقابسي او بابن القابسي ·

ولد ابو الحسن بالقيروان سنة 324 هـ (935 م) وبها تربى وتعلم وعلم ، وبها مات ودفن سنة 403 هـ (1012) م·

لقد اختلف اصحاب التراجم في نسبته : « القابسي » او « ابن القابسي » · فذهب القاضي عياض الى « انه لم يكن قابسياً وانما كان له عم يشد عمامته شد القابسيين ، فسمي بذلك · وهو قيرواني الاصل »· ونقد صاحب معالم الايمان هذا القول فنسب ابا الحسن الى قرية المعافريين التي كانت ضاحية من ضواحي قابس · وقد كانت هذه القرية خالية عندما ولي ابن ناجي قضاء قابس في غضون القرن الثامن للهجرة ·

وقد ترجم لابي الحسن القابسي مترجمون كثيرون نخص بالذكر منهم : ابن العماد الحنبلي في كتاب « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » ، وابن ناجي القيرواني في كتاب « معالم الايمان في معرفة اهل القيروان » ، والقاضي عياض صاحب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك »· كما ترجم له ايضا : السيوطي في « طبقات الحفاظ » ، وابن فرحون في « الديباج » ، وابن خلكان في « وفيات الاعيان » ، وغيرهم كثيرون ·

تلقى ابو الحسن القابسى العلم والحديث عن رجال القيروان واشهرهم : ابو العباس الابيانى التونسى وأبو الحسن الدباغ وابو محمد الحجاج وغيرهم ·

وعليه تفقه خلق كثير من ابناء افريقية ومن المغاربة والاندلسيين النازحين الى القيروان فى القرن الرابع · واشهر تلاميذه ابو عمران الفاسى وابو القاسم اللبيدى وابوبكر عتيق السوسى وغيرهم ·

وذكر القاضى عياض انه رحل الى الشرق فحج وسمع بمصر ومكة من حمزة الكنانى وأبى الحسن الثانيانى ··· وكانت رحلته الى الشرق سنة 352 هـ· وكان ابو الحسن جامعا لصفات الكمال ، فقال عنه السيوطى : « كان حافظا للحديث والعلل بصيرا بالرجال عارفا بالاصلين رأسا فى الفقه ضريرا زاهدا ورعا »·

ولابى الحسن القابسى مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسة عشر ذكرها القاضى عياض فى « ترتيب المدارك »، وهى كلها فى الفقه والحديث والمواعظ الا واحدا منها افرده القابسى لشؤون التربية ونعنى به كتاب : « الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين »·

قد صنفها فى النصف الثانى من القرن الرابع ولم يبق الاصل وانما بقيت منه نسخة خطية فريدة من نوعها نسخت عام 706 هـ بخط مغربى واضح جميل توجد الآن بالمكتبة القومية بباريس تحت رقم 4595 وعدد ورقاتها 97 (I) ·

I) لزيادة التفصيل انظر المقال الذى نشره المؤلف بالعدد 46 من النشرة التربوية للتعليم الابتدائى بتاريخ فيفرى 1966 .

الحسن بن رشيــق

أبو علي الحسن بن رشيق الازدي القيرواني ، حامل لـواء الادباء التونسيين . ولد بمدينة المحمدية حوالى سنة 385 وبها تلقى علم العربية والادب . ثم لما رأى من نفسه الميل الشديد والرغبة لطلب العلـوم والاجتمـاع باهل الفضل ارتحل الى القـيروان سنة 406 ، فقرأ على اساتذة ذلك العصر كأبى عبد الله محمد بن جعفـر القزاز كبير النحويين وعبد الكريم النهشلي وغيرهما ، واجتهد فى اقتناء المعارف والفضائل حتى عرف ، واذ ذاك أدخله المعز الصنهاجي في زمرة جلسائه الادباء ولم يزل الحسن يشتهر بقصائده الفائقـة وتآليفه الرائعـة الى ان حاز رئاسة شعراء زمانه وصار فيصلهم المعتمد . والتحق ابن رشيق بعد موت المعز بالامير تميم وخدمـه باشعاره فكان له خير نديم واصدق مصاحب وفيه يقول مادحا :

أصح وأقوى ما رويناه فى الندى

من الخبر المـاثور منذ قـديـم

احاديث ترويها السيول عن الحيا

عن البحر عن جود الامير تميـم

ثم انتقل الحسن بعد ذلك الى صقلية وسكن مدينة (مازره) الى ان ادركته منيته ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة 456 .

وهاك شذرة من نثره كتب بها الى بعض اخـوانه فى مـدح السفر والارتحال :

« مثل الرجل القاعد ، اعزك الله كمثل الماء الراكد ، ان ترك تغير ، وان تحرك تكدر • ومثل المسافـر ، كالسحـاب الماطر ، وهؤلاء يسمونه رحمة ، وهؤلاء يدعونه نقمة • فاذا اتصلت أيامه: ثقل مقامه ، وكثر لوامه ، فاجمع لنفسك فرحة الغيبة ، وفـرحة الاوبة • والسلام • وأنشد :

غب عن بلادك وارج حسن مغبة

ان كنت حقـا تشتكى الا قـلالا

فالبدر لـم يجحف بـه ادبـاره

ان لا يسافـر يطلب الاقبــالا

وقد ترك ابن رشيق ماثرة علمية ادبية جسيمة جدا فـاق بها اهل عصره• فمن تآليفه السائرة : « كتاب العمدة » فى صناعة الشعر ونقده وعيوبه و « قراضة الذهب فى نقد اشعار العرب » وكتاب « انموذج الزمان فى شعراء القـيروان » عدا مـا صنفه فى النحو واللغـة وفن التاريخ مما تفتخر به المملكة التونسية (1) •

---

1) انظر كتاب بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرهـا ابن رشيق لحسن حسنى عبد الوهاب (المطبعة التونسية 1330 هـ)

أبـو عبد الله المكفـوف

أبو عبد الله المكفوف الاموى ، تلميذ ابى الـوليد المهـرى المتقدم وخليفته فى زعامة دراسة العربية وتفسير الدواوين وايام العرب واخبارها ، قال الزبيدى :« وعليه قرأ الناس المشروحات، واليه كانت الرحلة من جميع افريقية والمغرب ، وكان يجلس مع حمدون النعجة فى مكتبه ، فربما استعار بعض الصبيان كتابا فيه شعر أو غريب أو من اخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه ، فاذا ألح عليه اعلم بذلك أبا محمد المكفوف فيقول : اقرأه على ، فاذا فعـل ، قال : اعده ثانية ، ثم يقول : رده عـلى صاحبه متى شئت فتعال امليه عليك » .

وتوفى المكفوف سنة 308 هـ 920 م فى ابتداء دولة عبيد الله المهـدى .

ابـن الـــوزان

ومن الاعلام الافريقيين الذين كـان يشار اليهم بالبنـان : ابن الـوزان ، وهو ابو القاسم ابراهيم ابن عثمان بن الوزان .

قال الزبيدى : « وهو يعد امام الناس فى النحو ، وكبيرهم فى اللغة وعظيمهم فى العربية والعروض مـع قلة ادعـاء ، وصدق لهجة ، وخفض جناح ، ونقاء صدر ، وانتهى من علم النحـو الى ان

كان أبو محمد المكفوف اذا وردت عليه مسائل من النحو سأله الاجابة عنها ، وأقر له بالتقدم فى ذلك ، وانتهى من اللغة العربية الى ما لعله لم يبلغه احد قبله ، وأما فى زمانه فما يشك فيه احد ، يحفظ كتاب (العين) للخليل ابن احمد ، وكتاب (غريب المصنف) لابى عبيد ، وكتاب ابن السكيت وغيرها ، وحفظ قبل ذلك كتاب سبويه ثم كتاب الفراء (1) .

وتوفى ابن الوزان سنة 346 هـ 957 م.

القـــــزاز

ومنهم محمد بن جعفر القزاز التميمى ، شيخ اللغة ومسند الأدب فى افريقية ، رحل الى المشرق فى صدر الدولة الفاطمية وروى عن أساطين اللغة والادب فى عصره ، وقد أورد لنا تلميذه ابن رشيق سنده فى رواية اللغة واخبار الشعراء حيث يقول فى غير ما موضع من كتاب (العمدة) :

اخبرنا شيخنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن ابى على الآمدى ، عن على بن سليمان الاخفش . (ويقول تارة اخرى) انشدنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن ابى الحسين ابن ابراهيم الآمدى ، عن ابى دريد ، عن ابى حاتم السجستانى ، عن ابى زيد الانصارى ...»

---

1) طبقات النحاة للزبيدى

ومن هنا يتضح كيف انتقلت رواية الاخبار الادبية والاشعار من جهابذة المشرق الى ابناء افـريقية ٠

وكانت طريقة القزاز فى مجلس دروسـه ان يـلقى عـلى الطلبة مشكلات المسائل اللغوية ، ويطرح عليهم أبيـات الشعـر العويصة ، ويطلب منهم فك معـانيها وتفسير الفاظها حسبما ذكر ذلك ابن رشيق (1) ٠

ومات القـزاز بالقيروان سنة 412 هـ (1020 م) بعد ان وضع اكبر معجم لغوى عرف وقتئذ فى اللغـة وهو كتاب (الجـامع فى اللغـة) ٠

ابـراهيـم الحصـرى

ومن يجب ذكره مـع من تقـدم من كبـار الاساتـذة فى الادب : ابو اسحـاق ابـراهيم الحصرى مـؤلف « زهـر الآداب » وغيره ، فقـد اورد ابن رشيق ايضا فى ترجمته العبارة الآتية : « كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم ، وشرف لديهم » ٠

1) العمدة ـ 1 ـ 211 ومعجم الادباء 6 ـ 469 وغير ذلك .

ومات الحصري بالمنصورية ـ صبره ـ حذو القيروان ـ سنة 413 هـ (1021 م) على التحقيق وامثال هؤلاء الشيوخ من قـادة الفكر الادبي وعمده ورواته ونقاده لا يعدون كثرة ٠

نقلنا اغلب هذه التـراجم عـن المرحـوم الاستـاذ حسن حسني عبد الوهاب ٠



الخاتمـــــة

ولاختتام مبحثنا هذا لـم نجد قـولا اصح نظرا ولا أبلغ تعبيرا ولا اكثر سدادا من قول المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة حيث قال :

« ولا تكون التربية كاملة اذا اقتصرنا على القيام بعملية التحرير لطاقـات الانسان العقلية والشعورية والعلمية ، بدون ان تهدى الى التصرف الرشيد فى تلك الطاقات ، والى كيفية تسخيرها لخـدمة المجتمع وجلب الخير للانسان ورفع منزلته المادية والمعنوية • وعلى هذا الاساس فان تحـرير الانسان بتحرير طاقاته الكامنة لا يكون غنمـا ولا يكون رقيـا ، الا اذا استعملت تلك القـوى فى الخير » •

الحبيب بورقيبة (خطاب يوم 30 جوان 1967)

فهرست المـوضوعـــات

